الفصل الأول

مدخل إلى تراث العمارة الإسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل إلى فقه العمارة الإسلامية

زخرت الحضارة الإسلامية بتجارب لا حصر لها، أسدل الستار عليها، ومن هذه التجارب التجربة العمرانية والمعمارية، قامت هذه التجربة على فقه العمارة، والمقصود بفقه العمارة، مجموعة القواعد التى ترتبت على حركية العمران نتيجة للاحتكاك بين الأفراد ورغبتهم فى العمارة وما ينتج عن ذلك من تساؤلات. فيطرحونها على الفقهاء الذين يطرحون لها حلولا سرعان ما تكونت منها قواعد عامة، احترمها أهل السلطة لاحترام المجتمع لها، واعتباره إياها قانونا شرعيا ويفسر هذا الإطار حركية العمران فى المدينة الإسلامية وكذلك القواعد التى شيدت وفقها العمائر. سجل الفقهاء قواعد فقه العمارة منذ وقت مبكر فعبد الله بن عبد الحكم الفقيه المصرى (ت ٢١٤هـ / ٨٢٩م) صاحب (كتاب البنيان) الذى ورد ذكره فى عدد من المصادر الفقهية ولم يعثر على مخطوط منه بعد، ولكنه مؤشر هام مبكر على تبلور فقه العمارة فى مدينة الفسطاط التى عاش فيها ابن عبد الحكم[1].

هذا الإطار لم ينل حظه من الدراسة بصورة كافية إلى الآن، وهو ما جعل دراسة المدينة الإسلامية تنقسم إلى نزعتين، أنصار النزعة الأولى: هم أساسا من المدرسة الاستشراقية القديمة الذين لم يروا فى المدينة – التى اختلفوا فى تسميتهم لها بين إسلامية وعربية وشرقية – إلا سككها الضيقة، وتعدد أزقتها وحارتها الملتوية كالتواء المتاهة، ومساكنها المنغلقة على نفسها ولم يروا[2] فى المشهد الحضرى لهذه المدن إلا مشهدا مضطربا فوضويا غير منظم تتداخل فيه كتل سكنية قليلة التهوية بسبب نوافذ دورها المطلة على الداخل، فأصحاب هذه النزعة لم يروا فى المدينة الإسلامية غير السلبيات، ولم يحاولوا فهم المجتمع وقوانينه وتفكيك العوامل المتداخلة التى أعطت للمدينة مظهرها العام، سواء كانت سياسية أم بيئية أم جغرافية أم اجتماعية أم دينية.. الخ، وبدونها مجتمعة لا يمكن فهم المدينة وعمارتها.

---

(١) فريد سليمان (دكتور)، الفقهاء والمدينة، ص ٨٩، ٩٠. المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، تونس، العدد ٩، ١٠، ١٩٩٤.

(٢) DE PLANHOL (X), (LES FONDEMENTS GEOGRAHIQES DE LA HISTOIRE DE ISLAM, P49 0 PAIRS 1968 0.

BALLBAS (T), LES VILLES MUSLMAMES DE ESPAGNE 0A0I0E0O 0VL, P25, 1942, 1970.

ولذا نشأت النزعة الثانية الأكثر موضوعية، والتى ترى أن المدينة الإسلامية ليست مجرد تجمع فوضوى للأحياء والمساكن، بل إنها تنظيم للمجال الحضرى، يأخذ بعين الاعتبار الرغبات والحاجيات الحقيقية للسكان، فى انسجام تام مع تركيبة اجتماعية متماسكة[1]، ثم إن ما بدا للبعض أنه غير مرتب فلعله على عكس ذلك هو نمط من التنظيم الذى يختلف عن التنظيم الهندسى والذى له جماليته الخاصة به[2].

والسؤال المطروح الآن، هل المدن الإسلامية لم تكن تخطط من قبل السلطة؟ الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى بيان طبيعة المدينة وأسلوب التعامل معها، فالمدن القديمة التى دخلها المسلمون فاتحين تركوها على حالها وأحدثوا فيها ما يحتاجه الإسلام من بنايات كالمساجد، وتعاملهم مع بناياتها القديمة جاء وفقًا لأحكام الشرع، التى قسمت البنايات إلى:

* **البناء الواجب:** مثل بناء العبادة كالمساجد لتقام فيها الصلوات، وبناء الحصون والأسوار والأربطة للدفاع عن ديار المسلمين.

* **البناء المندوب:** كبناء المنائر، والتى تندب للآذان فيها لكى يسرع الناس لأداء الصلاة، وبناء الأسواق، حيث يحتاج الناس للسلع، ولكى لا يتكلفوا عناء البحث عنها، فندب الشرع لذلك بناء الأسواق لكى يستقر بها أصحاب السلع، ويسْهُل للناس شراؤها منهم.

* **البناء المباح:** مثل بناء المساكن التى تبنى بهدف الاستغلال، فمن المعروف أن الشريعة جاءت لحفظ المقاصد الخمسة، الدين، والنفس، والمال، والعرض، والنسل. والله تعالى جعل أسبابًا مادية يقوم بها البشر، كى يحققوا تلك المقاصد، ومن هذه الأسباب بناء المساكن والدور ليحفظ الناس فيها أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وتقوم فيها الأسر فيبقى النسل الإنسانى ملتزمًا بدينه مقومًا مجتمعه[3].

* **البناء المحظور:** كبناء دور المنكر كالخمارات ودور البغاء والقمار، والبناء على المقابر والبناء فى أرض الغير، وهذا النوع من الأبنية هو الذى أزاله المسلمون فى المدن القديمة.

أما المدن الجديدة ومن أمثلتها الفسطاط، نرى فيها مخططا عاما تحدده السلطة، يقف عند حدود الخطة أو الحى أو الحارة، ولكن فيه طرق تكفى احتياج المسلمين طبقًا لظروف عصر

---

(١) HEVALER (D). LA VILE ARABC NOTRE VISION HISTORIQUE, ESPACEOCIAL VILLE ARABE. P12 0PAIRS, 19690.

(٢) فريد سليمان (دكتور) مرجع سابق، ص ٨٤.

(٣) إبراهيم بن يوسف الفائز، البناء وأحكامه فى الفقه الإسلامى، ص ٨٥: ١٥٨، رسالة دكتوراة، معهد القضاء العالى جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٥ م.

التخطيط ولوسائل المواصلات التى كانت مستخدمة آنذاك، فهاهو ذا أبو يعلى الفراء يحدثنا عن تخطيط البصرة فيذكر (وقد مصرت الصحابة البصرة على عهد عمر، وجعلوها خططا لقبائل أهلها، فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مربدها ستين ذراعًا، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعًا، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم، وتلاصقوا فى المنازل، ولم يفعلوا ذلك إلا عن رأى اتفقوا عليه أو نص لا يجوز خلافه[1]).

لكن يبقى هناك علامة استفهام حول كيفية نمو المدن أو الأحياء أو الخطط، نموًا عضويًا منظمًا دون تدخل من السلطات، وفى إطار قانون حاكم ملزم لكل أفراد المجتمع: وله سطوته عليهم يعرفونه ويطبقونه بوازع من أنفسهم لأنه شرع مستقى من الأحكام الكلية للفقه الإسلامى، إن احترام الدين وما يتضمنه من قيم وتشبع المجتمع به هو الدافع إلى ما سبق ذكره.

وهكذا ينشأ ما يعرف فى فقه العمارة بالحق وما يعرف بحيازة الضرر. فالحق: هو ملكية مادية ومعنوية،مادية ترتبط بمكان المنشأة. ومعنوية مترتبة على القيم العامة للمجتمع. ومن أمثلته حق المرور، أو حق الإرتفاق[2]. أما حيازة الضرر، فهو يعنى أن من سبق فى البناء يحوز العديد من المزايا التى يجب على جاره الذى يأتى بعده أن يحترمها، وأن يأخذها فى اعتباره عند بنائه مسكنه، وبذلك يصيغ المنزل الأسبق اللاحق من الناحية المعمارية نتيجة لحيازته الضرر، وهذه القاعدة قامت على حديث شريف هو (لا ضرر ولا ضرار)[3].

وبناءً على ما سبق نستطيع أن نضع تصورًا لكيفية تشكيل المدينة أو الخطة من خلال عمليات البناء المتتابعة ووفق قواعد فقه العمارة. فشوارع المدن تستقر بعد فترة من الزمن، حيث تستقر الفئة المستخدمة على شكل الشوارع التى تستخدمها، والتى يصعب التعدى عليها بالبناء، فالطريق هنا ملك لجماعة المسلمين، وبالتالى فالسيطرة عليه من حق المارة أو المستخدمين له، ولأن كل ساكن فى المدينة يمر ببعض الطرق أكثر من غيرها، فهو بذلك عضو فى الفريق المسيطر على كل الشوارع التى يمر بها، لذلك فإن عدد المسيطرين اختلف من طريق لآخر لاختلاف عدد مرات ترددهم عليه، بناء على موقع الطريق واتجاهه.

---

(١) أبو يعلى، محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلى، الأحكام السلطانية، ص ٢١٣. دار الفكر، القاهرة ١٩٧٤م.

(٢) خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، دار النشر للجامعات، القاهرة ١٩٩٧م.

(٣) يعتبر حديث (لا ضرر ولا ضرار) أحد الأحاديث الخمسة التى يقوم عليها الفقه الإسلامى، وهى: (إنما الأعمال بالنيات) و(الدين النصيحة) و(ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم). انظر حول ذلك، القرشى، يحيى ابن آدم، الخراج، ص ٩٧. تصحيح أحمد شاكر، دار المعرفة بيروت ١٩٧٩م. ويوضح الدكتور الهرنو هذه القواعد الخمس الكلية كما يلى: ١ – الأمور بمقاصدها. ٢ – لا ضرر ولا ضرار. ٣ – اليقين يزول بالشك. ٤– المشقة تجلب التيسير. ٥ – العادة محكمة. محمد صدقى الهرنو: الوجيز فى إيضاح قواعد الفقه الكلية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٤هـ.

وإذا نشأت مدينة جديدة، أو حى جديد فإن البناء فيها يتم عن طريق تتابع البناء فى أماكن هذا الحى، فإذا كثر عدد المارة فى مكان ما. فإن هذا الطريق سيكون أكثر سعة، وسيمنع المارة فيه بناءً على حق الإرتفاق[1] وحق المرور[2] أى بناء يضيق الطريق، وبذلك يزحف البناء وتتجاور الوحدات المعمارية بجوار بعضها البعض إلى أن تستقر حدود الطرق تبعًا لاستخدام المارة لها. فالطريق يعكس رغبات، وإمكانيات، وقيم الناس. ونتج عن تراكم قرارات الفرق الساكنة، وهى بنيت على الأسبقية فى التصرف. وبذلك نستطيع أن نقدم تفسيرًا واضحًا عن كيفية نشأة شبكة الطرق، على سبيل المثال فى المنطقة المحصورة بين مدينة الفسطاط والحصن- القاهرة - وشبكات الطرق فى بولاق الضاحية الشمالية الغربية بالنسبة للقاهرة.

وبناءً على ما سبق نستطيع أن نقسم الطرق فى المدن الإسلامية إلى ثلاثة مستويات من الطرق.

المستوى الأول: الطرق العامة[3] ومن أمثلها القصبة العظمى بالقاهرة والتى تربط بين بابى الفتوح وزويلة وامتداد هذه القصبة الذى جاء بطريقة طبيعية نتيجة لارتفاق عدد كبير من سكان المدينة بهذا الامتداد الذى يعرف بالخيامية والمغربلين والسروجية، ومن أمثلته الدرب الأحمر،

---

(١) حق الارتفاق فى اللغة: الانتفاع بالشىء. وشرعا هو أحد أنواع الملك الناقص، وهو حق عينى قصر على العقار، لنفعة عقار آخر، مملوك لغير الأول، أيا كان الشخص المالك كإجراء الماء من أرض الجار، أو تصريف الماء الملوث فى مصرف معين، أو المرور فى أرض الغير. وإذا ثبت حق الارتفاق يبقى ما لم يترتب على بقائه ضرر بالغير. وتنشأ حقوق الارتفاق بأسباب متعددة منها:

١ - الاشتراك العام: كالمرافق العامة من طرقات، وأنهار، ومصارف عامة، يثبت الحق فيها لكل عقار قريب، بالمرور والسقى وصرف المياه الزائدة عن الحاجة، لأن هذه المنافع شركة بين الناس يباح لهم الانتفاع بها بشرط عدم الإضرار بالآخرين.

٢ - الاشتراط فى العقود: كاشتراط البائع على المشترى أن يكون له حق المرور بها أو حق الشرب لأرض أخرى مملوكة له، فيثبت هذان الحقان بهذا الشرط.

٣ - التقادم: أن يثبت حق الارتفاق لعقار من زمن قديم لا يعلم الناس وقت ثبوته، لأن الظاهر أنه ثبت بسبب مشروع، حملا لأحوال الناس على الصلاح، حتى يثبت العكس. وهبه الزجيلى، الفقه الإسلامى وأدلته، ج٥، ص ٥٨٩، ٥٩٠. مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م. سليمان بن وائل التويجرى، حق الارتفاق، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه مخطوطة، بجامعة أم القرى ١٤٠٠ هـ خالد عزب، مرجع سابق ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) حق المرور: وهو حق أن يصل الإنسان إلى ملكه، دارا أو أرضا، بطريق يمر فيه، سواء أكان من طريق عام، أم من طريق خاص مملوك له أو لغيره أو لهما معا. وهبه الزجيلى - الفقه الإسلامى وأدلته، ج ٥، ص ٦٠٧.

(٣) عرف المقدسى هذا النوع من الطرق، بأنه الشارع المنفك عن الاختصاص، فالناس كلهم فيه سواء يستحقون المرور فيه، ولا اختصاص فيه لأحد بل هو مشترك عام الانتفاع لكل من يمر به، ويمنع من التصرف فيه بما يضر المارة فى مرورهم لأن الحق فيه ليس للمتصرف خاصة بل للمسلمين كافة. المقدسى، أبو حامد، الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة، ص ٢٢، تحقيق دكتورة آمال العمرى، هيئة الآثار المصرية، سلسلة المائة كتاب ١٩٨٨م.

وشارع تحت الربع، وسكة الحبانية، والصليبية بالقاهرة. وأشارت إحدى الوثائق إلى الطريق العام الذى يصل بين القاهرة وبولاق[1]. وهذا النوع من الطرق هو من حقوق المسلمين[2] وكانت الدولة تشرف على هذا النوع من الطرق، وتحافظ عليها، وتزيل أية تعديات عليها.

المستوى الثانى: هو الطريق العام الخاص، وهو أقل درجة من الطريق العام إذ الارتفاق به من قبل جماعة المسلمين، يقل عن سابقه، وبالتالى تزداد سيطرة الفريق الساكن فيه عليه، وهو يفضى عادة إلى الطريق العام وتتوزع منه شبكة طرق أكثر خصوصية.

المستوى الثالث: الطريق الخاص، وأفضل أمثلة هذا النوع من الطريق هو الطريق غير النافذ، وهذا الطريق ملك لساكنه فقط، ولذا سمى خاصًا، ويخضع لمثل هذا النوع الطرق التى يغلق عليها باب على طريق عام خاص أو عام، لاعتبار الباب فاصلاً بينها وبين غيرها، وباعتبار الطرق داخل الباب ملك للقاطنين فى الحى أو الحارة التى تبدأ من الباب. ومن أبرز هذا النوع بالقاهرة باب عطفة الحمام خلف باب زويلة وباب عطفة المسك بالخيامية وباب حارة برجوان. كان الهدف من الباب إذن الإعلام بحدود سلطة الدولة فيما يختص بشئون المدينة، وانتهاء هذه السلطة عند الباب، لتبدأ بعد ذلك سلطة المجتمع، الذى يمارس سلطته الجماعية فى الحفاظ على الحارة التى تتكون من عدة أزقة نافذة وغير نافذة تتشابك جميعها لتتقابل عند باب الحارة، وحق الانتفاع بطرق الحارة مقصور على القاطنين بها، وليس لأحد منهم الارتفاق فيها على غير الوجه المعروف إلا بإذن الشركاء كلهم، حتى المشترى من أحدهم بعد الإذن، كإحداث ميزاب، أو ساباط، أو روشن[3].

من هذا يتضح لنا أن السلطة هنا سلطة جماعية. فالجماعة هنا هى المسيطرة، وهى الحاكمة. فماذا لو لم تتفق الجماعة، هنا نلجأ إلى القضاء وليس إلى الدولة، لأن الدولة سلطتها سياسية أما القضاء فهو يمثل الشرع وحكمه إلزامى. ومن خلال القضايا التى عرضت على القضاة أو على العلماء للإفتاء فيها أمكننا التعرف على العديد من الأحكام الفقهية المتعلقة بعمارة الحارات.

---

(١) سجلات محكمة الباب العالى بالقاهرة: سجل ٧٣، مادة ١٣، ص ٥، ٦.

(٢) انظر ما كتبه السيوطى فى الحاوى فى الفتاوى، تحت عنوان: (البارع فى إقطاع الشارع) وهو فقيه مصرى عاش فى العصر المملوكى، ومن خلال ما ذكره نستطيع أن نتبين مستويات وأحكام الشوارع فى هذا العصر ومدى سيطرة ساكنيها المملوكى، ومن خلال ما ذكره نستطيع أن نتبين مستويات وأحكام الشوارع فى هذا العصر ومدى سيطرة ساكنيها عليها. السيوطى، جلال الدين، الحاوى فى الفتاوى، ج ٢، ص ١٩٨: ٢٠٨. وانظر أيضا، النووى، أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقى، روضة الطالبين، ج ٤، ص ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦؛ نشر المكتب الإسلامى، بدون تاريخ.

(٣) وهبه الزحيلى، مرجع سابق، ص ٦٠، ٦١١، ٦١٢.

تعد قضايا أبواب الحارات من أهم القضايا التى تكشف أسلوب ممارسة السلطة داخل الحارة، فقد يقوم أحد أفراد الحارة ببناء باب الحارة بعد موافقة كل سكانها، على أن يمد ساباط فوقها ليكتسب مساحة إضافية لمنزله نظير ذلك، وقد اكتسب هذا الحق «حسن أغا» حينما تقدم بطلب للقاضى، للإذن له فى بناء بوابة درب القزازبين على أن يمد فوقها ساباط، فأذن له بذلك، حيث لم يعترض أحد من سكان الدرب[1] وسجلت محكمة الباب العالى واقعة مشابهة، فقد تقدم المدعو «يوسف بن محمد» بطلب للمحكمة أوضح فيه أن باب الحارة الذى يوجد فى بيته بدرب الشيخ فرج ببولاق قد تهدم منذ مدة طويلة، وأن أحدا لم يهتم بإصلاحه.

لذا فهو يقترح القيام بإصلاحه على نفقته الشخصية، وبناء طبقة فوق الباب، ليتوسع فى بيته القائم بجوار الباب، وحصل على موافقة السكان بالحارة على ذلك، وأذن له القاضى بتجديد الباب وبناء الطبقة[2].

فماذا لو اعترض أحد السكان؟ يروى ابن الرامى فى كتابه (الإعلان بأحكام البنيان) نازلة وقعت فى تونس، لرجل كانت له دور كثيرة بزقاق غير نافذ ولرجل آخر معه فى الزقاق دار. فجعل صاحب الدور بابا على فم الزقاق، فمضى صاحب الدار الواحدة إلى القاضى وأعلمه بذلك، فأمر القاضى بهدم الباب[3]. وتبين أحكام الحارات أن إصلاح أو صيانة مرافقها تتم بالقسمة بين القاطنين فيها، إلا إذا تولى أحدهم ذلك عنهم نظير امتياز يقره القاضى.

والعلاقة بين سكان الحارة هى علاقة تضامنية، لا تقوم على ما يتعلق بشئون الحارة من رعاية عمرانية فقط، بل تصل إلى حد الحفاظ على المجتمع وكيانه وقيمه. والحادثة التالية نموذج لذلك، فقد حضر جمع من أهالى خط باب الشعرية إلى القاضى الحنفى بمحكمة باب الشعرية، ومنهم جعفر بن عبد الله، والسيد أحمد بن الشريف محيى الدين، والشريف عبد الباسط بن الشريف القاسم، والحاج شمس الدين بن أبى بكر، والحاج منصور بن سعود، وغيرهم ممن تضرروا من الشيخ أبى الحسن بن أبى اليسر، حيث أعلموا القاضى أنه بالخط المذكور، داخل درب زائد النيل، وهو محل سكنهم، سكن جماعة من النسوة سيرتهن غير حميدة، وهم متضررون من ذلك، فأمر القاضى أبا الحسن، مالك سكنهم، بإخراجهن فى خلال ثلاثة أيام، وشدد على عدم سكن أحد فى الدرب إلا من يتصف بالأوصاف الحميدة، وسجلت هذه الواقعة بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٠١٦هـ / ١٦٠٧م[4].

---

(١) حجة وقف حسن أغا.

(٢) سجلات محكمة الباب العالى، سجل رقم ١٩٣، مادة ٨٨٣، ص ٢٤٠.

(٣) ابن الرامى، محمد بن إبراهيم اللخمى: الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٩٦، ص ١٠٤، مجلة الفقه المالكى، وزارة العدل – المغرب، الأعداد ٢، ٣، ٤، ذى القعدة ١٤٠٢هـ.

(٤) محكمة الباب العالى، سجل ٨٧، ص ١١، مادة ٤٥.

ظلت سلطة المجتمع داخل الحارة غالبة. إلا أنه بمرور الوقت ظهرت وظيفة شيخ الحارة، وهو أحد سكانها الذى يتم اختياره ليقوم برعاية شئون الحارة اليومية، وكان عمله تطوعيا، وهو غالبا ما يكون من أعيانها الأثرياء أو العلماء. ومنذ أن بدأت الدولة تفرض نفوذها على الحارات داخل المدن، فى القرن التاسع عشر، فقدت الحارة وحدتها الاجتماعية، وسقطت سلطتها، وتحولت إلى الدولة، وتحول شيخ الحارة إلى موظف يتقاضى راتبا من الدولة، حيث أصبح عين الدولة على الحارة[1].

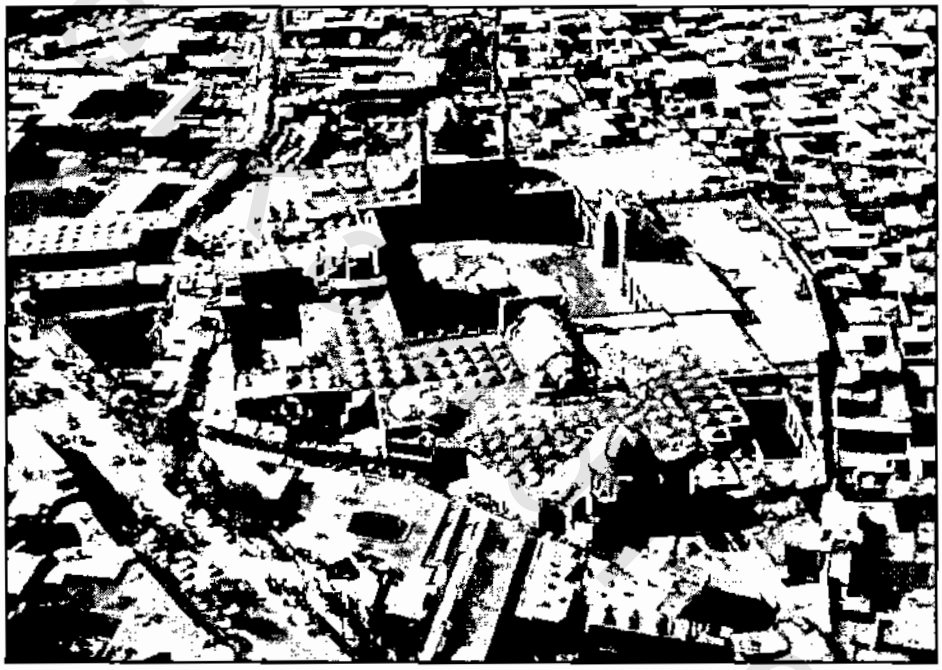

صورة رقم (١): مسجد الجمعة والبازار فى أصفهان.

(١) عبد الحميد سليمان (دكتور)، نظم إدارة الأمن فى مصر العثمانية، ص ٦٨، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة – العدد (٧٥) ١٩٩٢م.

عبد المنعم جميعى (دكتور)، مشايخ حارات القاهرة فى القرن التاسع عشر، ص ٦٣ : ٦٨. المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٣٩، ١٩٩٦م.

الحديث عن العمارة الإسلامية يطول ويتشعب ويمكن اختصاره فى عناصر رئيسية هى:

١ – المسجد الجامع.
٢ – مقر ولى الأمر والقاضى.
٣ – المدارس.
٤ – البيمارستانات.
٥ – الحمامات
٦ – القلاع والأسوار.

والعنصر الأخير تلاشت الحاجة إليه نتيجة للتطور الذى أدخل على وسائل الدفاع فى العصر الحديث، ولهذه العناصر توابع لا تقوم إلا بها كالبساتين والساحات والميادين والمقابر وغير ذلك.

المسجد الجامع، ومقر ولى الأمر

لقد يسر الله على الإنسان سبل الحياة، فالصلاة تجوز فى أى مكان طاهر. وبناء المساجد أمر من الله سبحانه وتعالى، لجمع المسلمين فى مكان واحد وعلى قلب رجل واحد ليذكر فيها اسمه. مكان يحميهم من التقلبات الجوية والظروف المناخية فالجانب الوظيفى فى تصميم المسجد لا يتعدى إيجاد الفراغ المناسب لعدد من المسلمين يقيمون فيه الصلاة، متجهين فى صفوفهم المتراصة قبل المسجد الحرام، المضمون الإسلامى فى النظرية المعمارية يتطلب أن يأخذ المسجد شكلا طوليا متعامدا على اتجاه القبلة، لإطالة صفوف المصلين حتى يحظى أكبر عدد منهم بالصف الأول، لما فى ذلك من جزاء عند الله، فالمضمون هنا يحدد المسقط الأفقى الأنسب للتعاليم الإسلامية، الأمر الذى لا يتناسب مع المسقط الدائرى أو المنحنى أو المسدس أو حتى المربع، فالعبرة هنا بالأسس العقائدية. وليس بالمراجع التراثية التى يرجع إليها عند تحديد الملامح التشكيلية للمبنى بعد استيفائه للمضمون. والملامح التشكيلية من ناحية أخرى تتحكم فيها طرق الإنشاء ومواد البناء مع التعبير عن الاستمرارية الحضارية للقيم الجمالية المتأصلة فى المجتمع.. فالإسلام لا يرتبط بنظام خاص بالإنشاء بل هو دين لكل مكان وزمان، يتفاعل مع التقدم العلمى والتكنولوجى للمسلمين فى كل المجالات، بما لا يتعارض مع تعاليمه وقيمه. ومن ذلك بطبيعة الحال طرق البناء والتشييد: فمن المستحب من الناحية العقائدية أن يقل عدد الأعمدة التى تقطع الصفوف، بل ويكون المسجد بدونها أكثر استحبابا حتى يستطيع المصلون رؤية خطيب الجمعة دون عوائق من البناء. وهذا مضمون إسلامى آخر يحفظ للإسلام تقدمه وحركته الحضارية ولا يقيده بالقيم التراثية التى ظهرت فى أزمنة معينة ومناطق معينة من هنا يكون البحث عن المضمون سابقا للبحث عن الشكل. دراسة المساجد الأثرية تستهدف البحث عن الخيوط التى تربط الماضى بالحاضر لاستنباط المفردات المعمارية التى يمكن أن تتفاعل مع المبنى المعاصر[1].

---

(١) د. عبد الباقى إبراهيم، المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية، ص ٨٠ نشر مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية القاهرة ١٩٨٦.

والمضمون الآن فى تصميم المسجد هو تهيئة الفراغ المعمارى الذى يساعد المسلم على الخشوع والرهبة وهو واقف بين يدى الله سبحانه وتعالى، وليس الفراغ الذى يبعث فى النفس الانبهار، الذى يتعارض مع كثير من المساجد التراثية خاصة ما كان يتفاخر به الحكام والولاة. فالإسلام يدعو إلى بناء المسجد بناء قويا ليس فيه مفاخرة أو تزيين، لقوله ﷺ فيما رواه أبو داود وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أمرت بتشييد المساجد» وقال ابن عباس عقب هذا الحديث: «لزخرفتها كما زخرفت اليهود والنصارى». وهذا القول من ابن عباس إما أن يكون قد تلقاه لفظا ومعنى من النبى ﷺ ولم يرفعه الراوى. وإما أن يكون ابن عباس قد أخذه من أحاديث، أخرى كما فى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله، قال: فمن الناس». وكحديث السيدة عائشة رضى الله عنها أن أم سلمة وأم حبيبة وصفتا للنبى ﷺ كنيسة رأتاها بالحبشة- يقال لها مارية وذكرتا ما فيها من حسن التصاوير، فقال ﷺ: «أولئك كانوا إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة». لذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه. لما وسع المسجد النبوى للبناء: «أكن للناس من الحر والقر ولا تحمر ولا تصفر» رواه البخارى ففى هذا الأثر دلالة واضحة على أن الغاية من بناء المساجد هى درء الحر والبرد عن المصلين فيها. فيجب إبعاد كل مالا يحقق هذه الغاية عن بيوت الله عز وجل. وإلا صدق فينا قول النبى ﷺ «إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم» كما فى صحيح الجامع الصغير للألبانى. من هذا المنطق يمكن تحديد أحد المضامين الإسلامية لتصميم المسجد، وهو البساطة التى عبر عنها إبان بن عثمان بن عفان فى الموقف التالى:

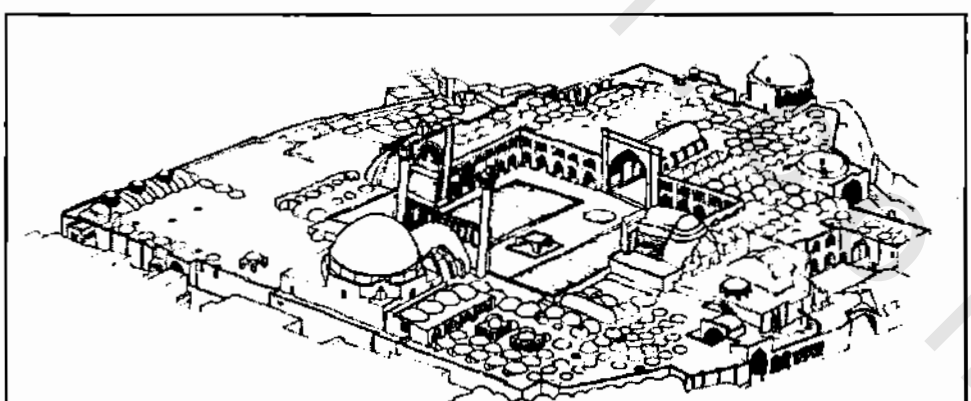

شكل رقم (١): مسجد الجمعة فى أصفهان.

فحينما قرر الوليد بن عبد الملك: توسعة المسجد النبوى لغرض سياسى وهو مضايقة الحسن ابن الحسن وزوجه فاطمة بنت الحسين لحب أهل المدينة لهما وكانا يقيمان فى بيت رسول الله، فأعلن أنه يريد تجديد المسجد النبوى الشريف وتوسعته، وأصدر أمره إلى أمير المدينة بهدم المسجد، وإضافة بيت الرسول كله بما فيه القبر إلى المسجد بحجة توسعته.

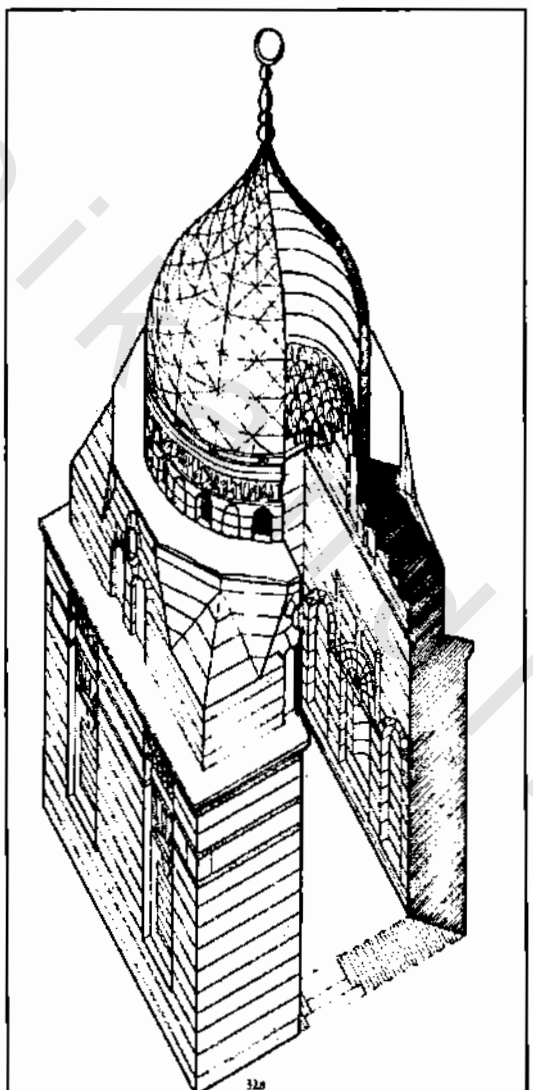

شكل رقم (٢): ضريح جانى بك الأشرفى - بالقاهرة.

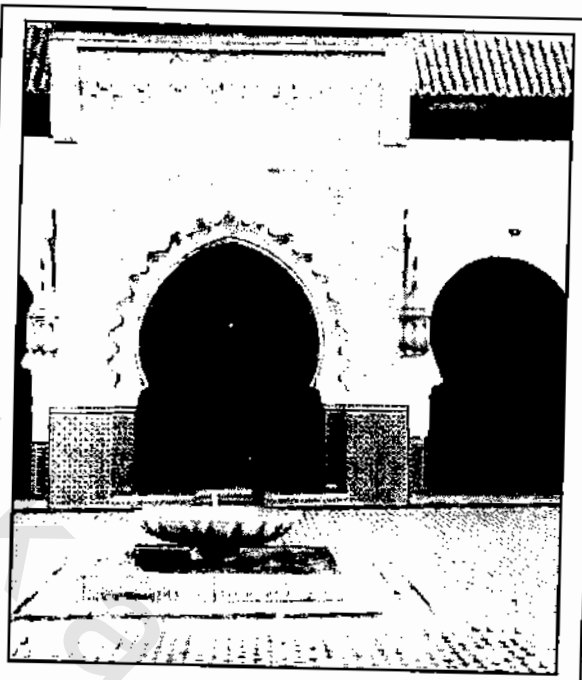

صورة رقم (٢): مسجد القرويين بفاس.

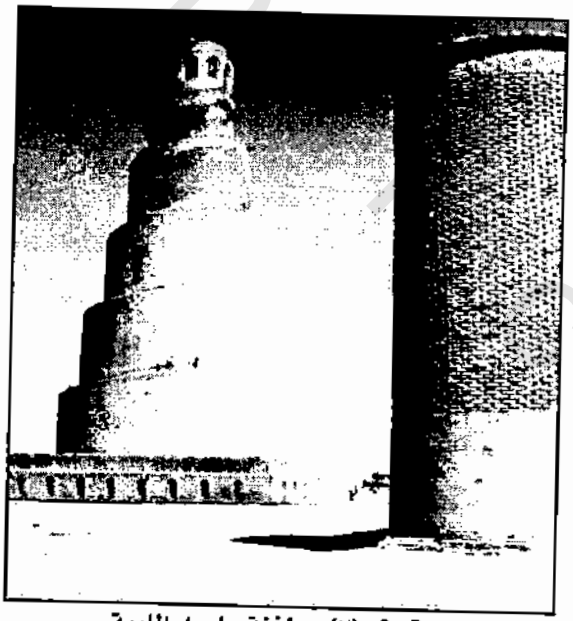

صورة رقم (٣): مئذنة سامراء الملوية.

صورة رقم (٤): صحن المسجد الأموى بدمشق.

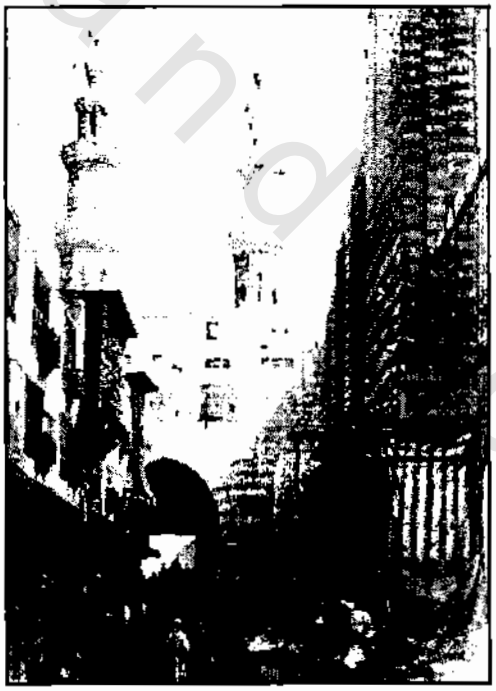

صورة رقم (٥): باب زويلة ومسجد المؤيد شيخ.

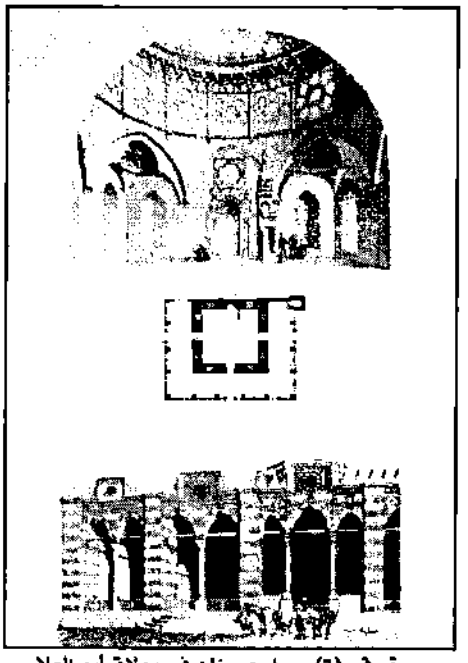

صورة رقم (٦): جامع سنان فى بولاق أبو العلا.

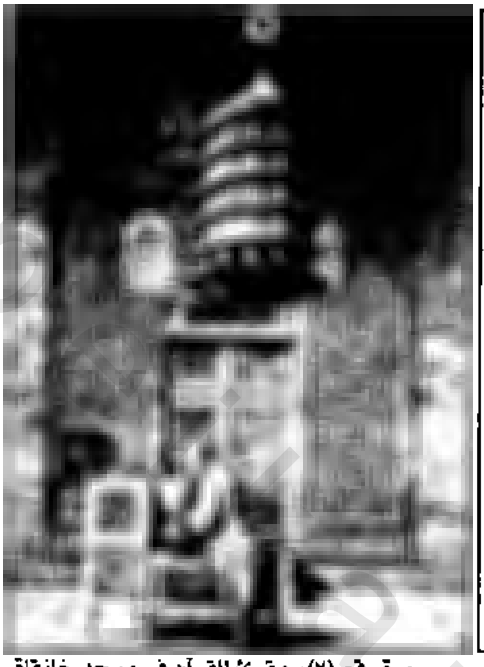

صورة رقم (٧): مقرئ للقرآن فى مسجد خانقاة السلطان الظاهر برقوق.

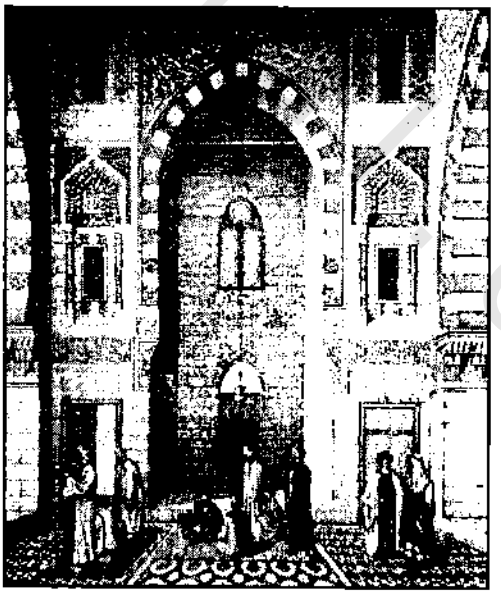

صورة رقم (٨): مدرسة السلطان قايتباى

ولما قيل للحسن وزوجه لابد من الرحيل من البيت أبيا أن يخرجا مع ذريتهما فأرسل الوليد: إن لم تخرجوا هدمناه على رءوسكم، وتم تنفيذ أمر الوليد، وانتقل أبناء الحسن إلى الحيرة بالعراق، وتمت التوسعة الثالثة للمسجد بضم البيت الشريف إليه وذلك عام ٨٨هـ ومن هنا يلاحظ أن القبر الشريف لم يكن جزءا من المسجد ولم يدفن الرسول بمسجده، بل إن إلحاق القبور بالمساجد بدعة، وكان أول قبر يلحق بمسجد بالقاهرة التى انتشر فيها هذا الأمر وعمّ على يد شجرة الدر حينما ألحقت قبة (مدفن) زوجها الصالح نجم الدين أيوب بمدرسته وكان ذلك بعد سبعة قرون من هجرة الرسول. ولما تم بناء المسجد جاء الوليد من دمشق إلى المدينة وأخذ يتجول فى المسجد معجبا فخورا بالزخرفة التى أدخلت عليه، إذ لم يكن للمسلمين عهد ببناء المساجد المزخرفة ولا ببناء القباب على طريقة الكنائس، وكان إبان بن عثمان ابن عفان رضى الله عنه لا يزال حيا. فأخذ الوليد بيده وطاف بالمسجد وقال لإبان رضى الله عنه (أين بناؤنا من بنائكم؟ فكان جواب إبان على الفور لقد بنيناه بناء المساجد، وأنتم بنيتموه بناء الكنائس) فبهت الوليد، وكانت الكلمة كالصاعقة فى أذنه لأن توسعة عمر ثم عثمان للمسجد النبوى كانت متواضعة من بساطة الإسلام فى عمارة المساجد فقد كانت مساجد الصدر الأول من الإسلام كجامع عمرو بن العاص ومسجد على بالكوفة والمسجد النبوى تنطق ببساطة الإسلام وقوته[1] ويلاحظ من تتبع مكانة المسجد الجامع بالمدينة على مر العصور الإسلامية أنه فى صدر الإسلام كانت له المكانة الأولى التى تبلور حولها التكوين الطبيعى للمدينة باعتبار أن المسجد فى ذلك الوقت كان هو مصدر التعاليم الإسلامية وملتقى الحاكم بتجمعات السكان. ومع مرور الوقت بدأت الشخصية الفردية للحاكم تظهر بالتدريج فظهر اهتمامه برفاهيته وحاشيته وجنده، فارتبط المسجد بعد ذلك بقصر الحاكم ودواوينه كما كان فى المدينة الدائرية التى بناها المنصور. وبعد ذلك انفصل المسجد عن قصر الحاكم الذى استمر يأخذ مكانه المتوسط فى المدينة ولم يعد المسجد الجامع بعد ذلك يمثل مركز الثقل لوسط المدينة. وتطور بعد ذلك الهدف من عمارة المساجد إلى أن أصبحت تمثل عملا من أعمال التفاخر عند الحكام كما مارسه المماليك الذين بنوا المساجد فى القاهرة أو كما تصوره محمد على الذى بنى مسجده الكبير بعد ذلك ليطل على مدينة القاهرة من قلعة صلاح الدين وهكذا أصبح المسجد فى الفترات الأخيرة من العصر الإسلامى لا يمثل مركز الثقل الذى تتبلور حوله المدينة الإسلامية. إن مكانة المسجد فى المدينة تعبر عن مدى ارتباط الناس بالإسلام كدين ودنيا[2] وما يتبعها من تجمع سكانى كبير

---

(١) عن فتوى للشيخ محمد على عبد الرحيم الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر.

(٢) د. عبد الباقى إبراهيم، تأصيل القيم الحضارية فى بناء المدينة الإسلامية المعاصرة ص ٣٣ مركز الدراسات التخطيطية والعمرانية القاهرة ١٩٨٢.

فى المدن المكتظة. وكم كنا نتمنى أن نرى مثلا أثناء توسع مدن الكويت والدوحة والقاهرة والدار البيضاء وجدة وبناء مناطقها السكنية لذوى الدخل المحدود أن تتجه فى هذا الاتجاه، وتوفر الكثير من الراحة النفسية لأبنائها.

المساكن:

المضمون فى تصميم المسكن الإسلامى لا يقتصر على الجانب الوظيفى، وإنما يرتبط المضمون الإسلامى لعمارة المساكن أيضا بالتعاليم الإسلامية التى تختص بحياة الأسرة وأسلوب معيشتها، بصفتها النواة الأولى للمجتمع. وللبيت فى الإسلام حرمته وخصوصيته، فلا يتطلع أحد إلى ما فيه أو من فيه. وقد شرع الله حرمات المسكن ونهى عن التعدى عليه. هكذا اختص الله المسكن بالرعاية والاحترام، ليس لما هو عليه كمعمار، ولكن لمن هم فيه. فالمسكن فى المنظور الإسلامى يعتبر وحدة اجتماعية لا ينفصل فيها البناء عن الأسرة التى تقيم فيه. بل إن المضمون الإسلامى لمتطلبات الأسرة المسلمة هو الذى يحدد تصميمه. فقد كان يبنى من الداخل إلى الخارج وليس العكس. كانت الأسرة تحدد متطلباتها السكنية مع البناء فى حدود إمكانياتها المادية. ويعنى ذلك وجود مشاركة فعلية بين صاحب المسكن والمعمارى. تبدو المنازل الإسلامية بوجه عام من الخارج بسيطة متشابهة ويغلب على جدرانها اللون الأبيض كما فى منازل غرناطة[1].

يقول الله عز وجل فى محكم آياته:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[2]

فقد شرع الله سبحانه وتعالى الاستئذان قبل دخول بيوت الغير، ولذا نجد فى المنازل القديمة مطرقة الباب على الأبواب الخشبية، وهى مطرقة معدنية البسيط منها يتكون من لوحة معدنية فوقها لوح آخر ترتبط بمفصل يتحرك[3]. يطرقها الزائر ثلاث مرات فإن لم يؤذن له بالدخول يرجع من حيث أتى، وقد استبدلت المطرقة فى عصرنا الحاضر بوسائل أخرى حديثة.

---

(١) يوسف شكرى فرحات (دكتور)، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص ١٢٤، المؤسسة الجامعية بيروت ١٩٨٢م.

(٢) سورة النور الآية ٢٧.

(٣) غازى رجب، البيوت القلاعية فى اليمن، ص ١٦١، مجلة سومر مجلد ٣٧ ، ١٤٠١هـ.

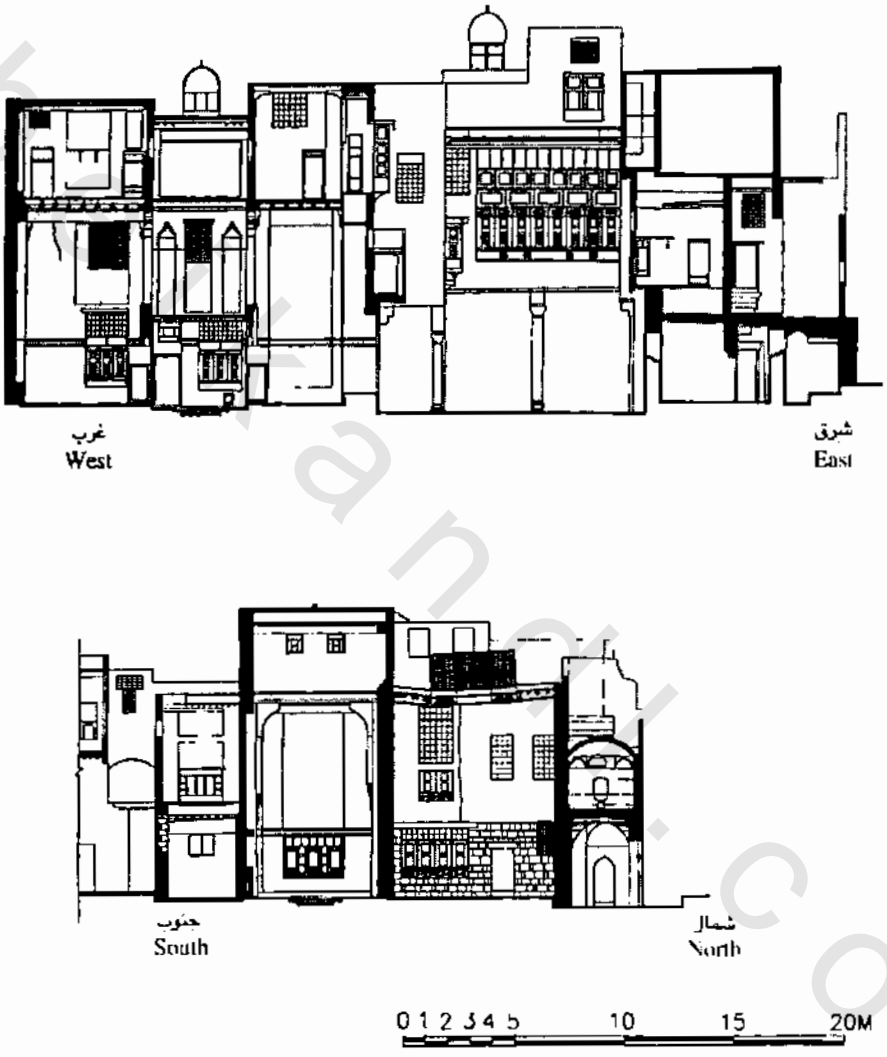

شكل رقم (٢) : بيت السحيمى.

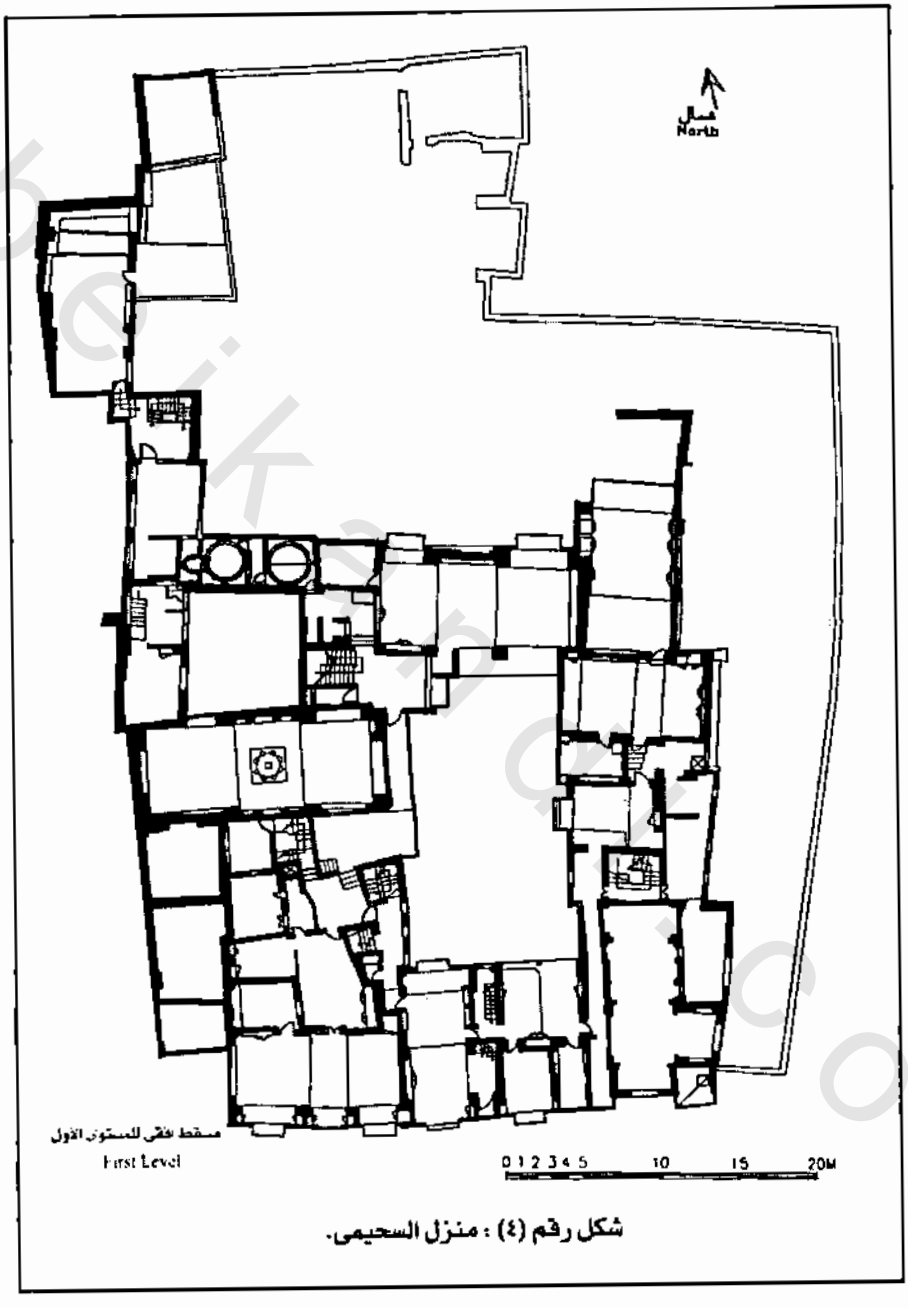

شكل رقم (٤) : منزل السحيمي.

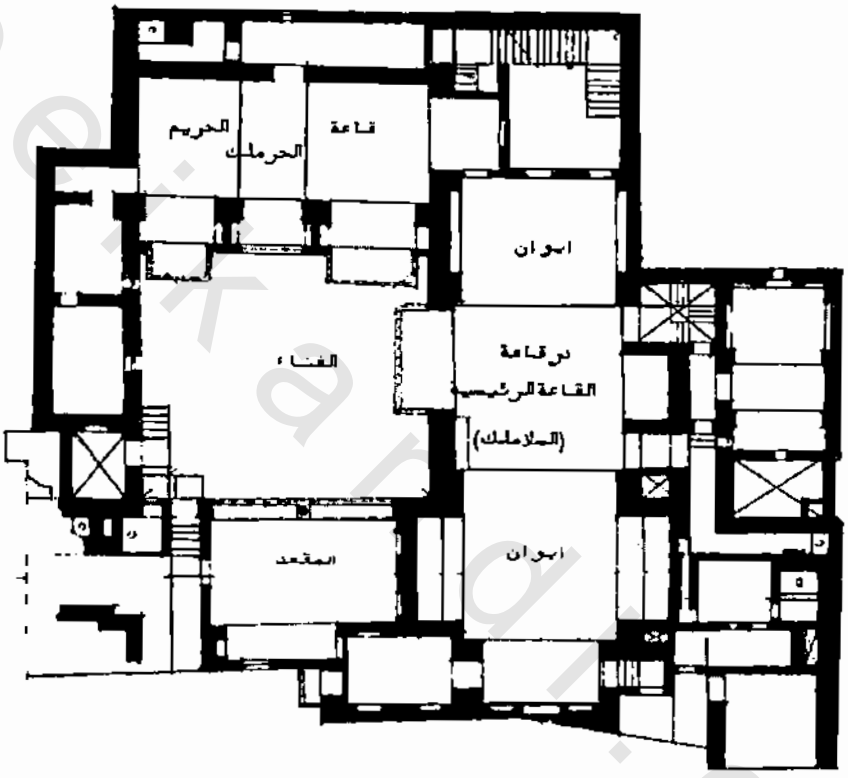

شكل رقم (٥) : منزل زينب خاتون بالقاهرة.

obeikandl.com

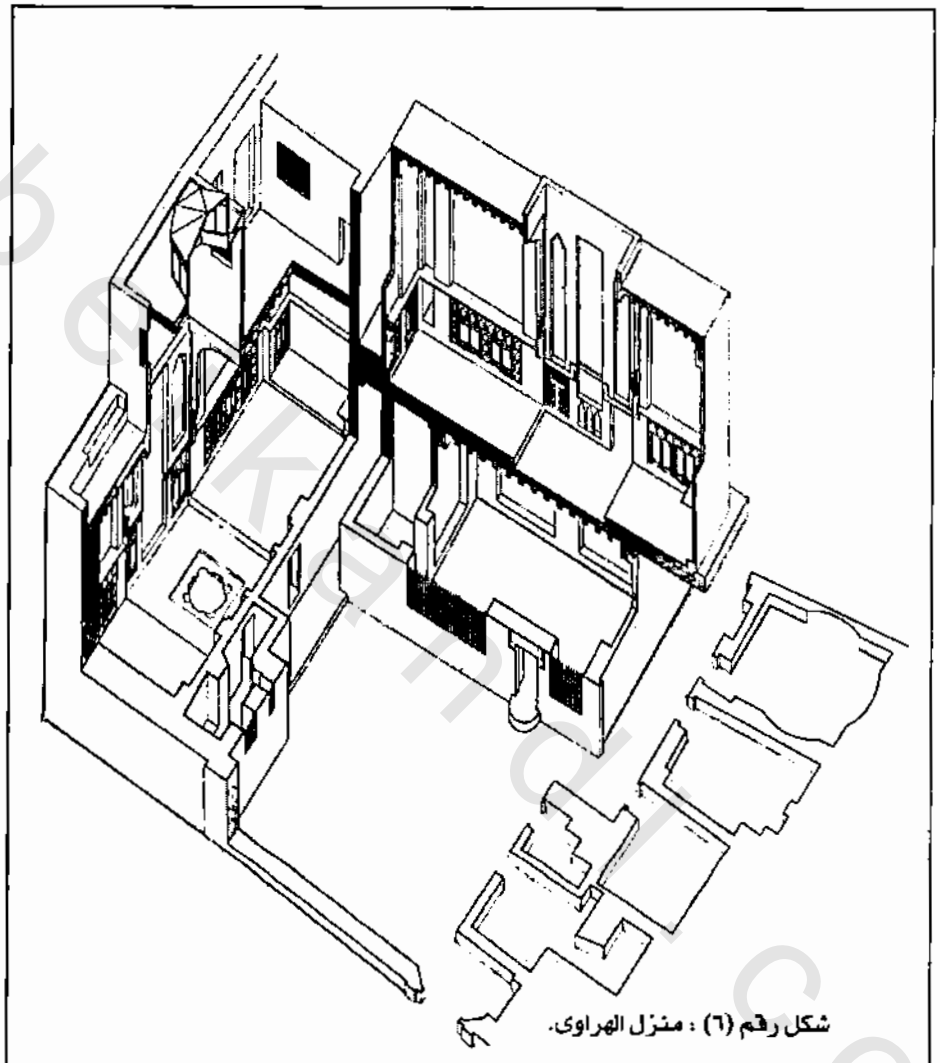

شكل رقم (٦) : منزل الهراوى.

وأغلب مداخل البيوت القديمة منكسرة بزاوية ٩٠ درجة لمنع رؤية أهل البيت من الزقاق أو الحارة عن طريق الباب المفتوح، وقد استعملت المداخل المنكسرة بكثرة في منازل الفسطاط[١] وبغداد على سبيل المثال.

ويفضي المدخل عادة إلى فناء يتوسط المنزل، ويعتبر الفناء الداخلي محور النشاط الرئيسي في المنزل والفناء يتضمن مميزات عديدة للمنزل، هذه المميزات بيانها كما يلي:

المناخ الوضعي: للحصول على خفض في درجة الحرارة داخل الفناء فإن ذلك يتأتى نتيجة الظلال الناتجة عن تقابل أضلاع الفناء ووجود السطحات المائية التي ينتج عنها تبخير — نافورات — يقابله خفض في درجات الحرارة وانعكاس جزء من الأشعة مما يقلل الامتصاص للأشعة الحرارية وكذلك وجود المزروعات عامل رئيسي في تلطيف الجو. ولإحداث تهوية جيدة بدون تلوث نجد أن الفناء بدرجة حرارته المنخفضة سوف يكون منطقة ضغط مرتفع وأن الخارج (الشارع) سيكون منطقة تفريغ (ضغط منخفضة) وتبعا لذلك سيكون هناك تيار هواء مستمر من الفناء إلى الشارع وبالطبع ستكون التهوية بدون أي تلوث علاوة على تلطيفها للجو الداخلي وذلك يكون بعد عمل الفتحات المناسبة التي تتضمن التهوية السليمة لأجزاء المبنى. ويضاف إلى ما سبق الدور المهم الذي يلعبه الفناء في الحفاظ على الهواء البارد الذي يتبقى من الليل ويتسرب إلى سمك الجدران وسقوف السطح، مع ملاحظة قلة استعمال النوافذ الخرجية، واستعمال السراديب تحت الأرض التي تمتص الحرارة أو الرطوبة ببطء، إضافة إلى التصاق البيت ذاته من ثلاث جهات مع البيوت المجاورة مما يقلص تعرضه لأدنى حد ممكن من أشعة الشمس، وتدل القياسات الحرارية الموقعية بأن التفاوت بين السطح والسرداب — تحت الأرض — في بعض البيوت التراثية في الكاظمية قد بلغ أكثر من عشرين درجة مئوية، وقد سجل فرق حراري قدره ١٨ درجة مئوية بين السطح والفناء الداخلي في منتصف النهار صيفا وقد يزداد هذا الفرق الحراري بمقدار أربع درجات مئوية في حالة تغطية الفناء بقطع من القماش من أعلى. إن سمك الجدران في البيت البغدادي، والذي يبلغ أحيانا مترا، قد ساعد على زيادة ما يسمى (بالتأخر الزمني) للحرارة إلى داخل الغرف حيث سجل في نفس الدورة زمنا يتراوح من ٧ — ١٢ ساعة[٢].

---

(١) أحمد عبد الرازق (دكتور): بيوت الفسطاط الأثرية، ص ٩، مجلة المتحف العربي السنة الرابعة، العدد الأول ١٤٠٩هـ.

(٢) إحسان فتحي (دكتور) وجون وارن، البيوت التقليدية في بغداد، ص ١٠٢، مجلة المدينة العربية، العدد ١٧، السنة الرابعة ١٩٨٦م.

لقد تميزت المنازل الإسلامية بأنها فى تكوينها وهندستها شديدة الانسجام مع ظروف المناخ. ويلاحظ هذا فى اتجاهات هذه المنازل ففى دمشق مثلا يمتد المنزل بشكل مستطيل من الشمال إلى الجنوب منحرفا ٢٠ درجة نحو الغرب وذلك لكى يستفيد هذا المنزل من أشعة الشمس الجنوبية ويتحاشى الرياح الشمالية والغربية[١]. وانتشر عنصر الشمسيات فى المنازل الإسلامية فى مصر وبلاد الشام كما عرفته منازل الإمارات وهو عبارة عن لوح من الجص يكون معقودا فى الغالب يعشق به زجاج ملون يسمح بدخول أشعة الشمس ملونة، وهو فى البيئات الصحراوية كما فى الإمارات يسمح بدخول الضوء ويمنع دخول الرياح المحملة بالأتربة[٢].

الهدوء: لا شك أن معدل الضوضاء فى المدن الحالية أصبح يهدد الصحة النفسية للسكان، والمصدر الرئيسى للضوضاء هو الشارع لكثرة مرور السيارات باختلاف أنواعها واستعمال آلات التنبيه المزعجة. وحتى فى البلاد التى أمكن منع استعمال آلات التنبيه بها فإن عدد المحركات الذى يعتمد فى تبريده على الهواء أصبح وحده مسئولا عن الإزعاج، وتنتقل ٧٠ فى المائة من الضوضاء إلى داخل المبنى عن طريق الفتحات المباشرة على الشارع، وبالطبع فى حالة المبانى ذات الفناء ستكون الفتحات أقل ما يمكن على الشارع وبالتالى فإن انتقال الضوضاء سوف يكون بشكل محدود.

الخصوصية: تعتبر الخصوصية من العوامل الرئيسية الموجهة فى اختيار الفناء كأساس للتخطيط للمنازل الإسلامية. والمتعمق فى دراسة النواحى الاجتماعية المترتبة على هذا التخطيط يجد أن الفناء يلعب دورا هاما كمركز للنشاط الاجتماعى للعائلة. فهو يربط بين أفراد الأسرة ويكون عادة المكان المناسب للأنشطة الاجتماعية المختلفة مع الاحتفاظ بالخصوصية كاملة فى جميع الأحوال[٣].

تطور تخطيط المنازل فى العمارة الإسلامية إلى أن أصبحنا نرى بوضوح هذه المنازل فى مراحلها المختلفة التى مرت بها، وقد صيغت هذه المكونات وفقا للرؤية الإسلامية. فخصصت أقسام خاصة بالضيوف من الرجال الذين ينزلون ضيوفا على صاحب البيت، هذه الأماكن غالبا ما تكون منفصلة عن باقى وحدات المنزل، وقد عرفت أماكن استقبال الضيوف فى المنازل بالسلاملك. وفى منازل رشيد على سبيل المثال خصص الطابق الأول علوى لاستقبال الضيوف،

---

(١) عفيف بهنسى (دكتور)، الشام لمحات آثارية وفنية، ص ٥٦. دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م.

(٢) بسام داغستانى، المشربيات والزجاج المعشق فى دولة الإمارات العربية، ص ٣، بحث قدم فى ندوة الحرف التقليدية فى العمارة الإسلامية، القاهرة ١٩٩٥م.

(٣) على بسيونى، الفناء كعنصر هام فى المدينة العربية، ص ٨٧.

وعند بداية الطابق الثانى علوى ينتهى السلم الصاعد إلى المنزل من الطابق الأرضى ليبدأ سلم آخر من داخل الطابق الثانى والطوابق الأخرى، وهو ما يعكس فكرة عزل طوابق المنزل التى تختص بصاحب المنزل وعائلته عن طابق الاستقبال، وفى حالة نقل الطعام للضيوف من الطوابق العلوية إلى الاستقبال يتم ذلك عن طريق سلم سرى فى إحدى الحجرات كما فى منزل رمضان، حيث تضع النساء الطعام وتعود إلى مكانها، وبعد تجهيزه فى حجرة الطعام ينتقل الضيف إليها ليرى الطعام جاهزا بها ولا يدرى من أين أتى هذا الطعام. ونرى فى رشيد ابتكارًا آخر يتسم بالطرافة، وهو دولاب المناولة، وهو دولاب حائطى عبارة عن رفين من الخشب يدور على محور خشبى يوضع الطعام عليهما ثم يدار الدولاب من الخارج إلى داخل الاستقبال ليقدم صاحب المنزل الطعام لضيوفه ما وضع على رفوفه. وهذه الفكرة طبقت فى منزلين برشيد هما منزل البقراولى وجبرى، وقد استخدمت هذه الفكرة فى المطاعم والفنادق الغربية لعزل المطبخ عن صالة الطعام، ونقلناها نحن عن الغرب دون أن ندرى أن لها أصولا عربية تراثية. ولم ينس المهندس أنه قد تستدعى الضرورة تواجد المرأة فى طابق الاستقبال لشأن يتعلق بها يناقشه الرجال مثل حوادث الخِطبة والزواج أو الميراث. لذا فقد صممت ممرات أعلى قاعات الاستقبال وضعت عليها أحجبة من الخشب الخرط كى ترى المرأة وتسمع من خلالها ولا ترى المرأة، ومثل هذه الممرات انتشر استعمالها فى المنازل المملوكية بالقاهرة. ووجدت قاعات لتستقبل النساء فيها ضيوفهن كما فى منزل الرزاز فى القاهرة.

لقد حرص المسلمون على توفير الراحة لضيوفهم، وبصفة خاصة الراحة النفسية، ولذا نجد فى المنازل اليمنية القديمة عنصرًا معماريًّا هاما يوفر تلك الراحة وهو المفرج حيث يخصص أعلى طابق فى البيت اليمنى لاستقبال الضيوف والاجتماعات والراحة ويشرف عادة على المدينة ومناظرها الطبيعية ويسمى هذا المكان بالمنظر أو المنظرة ويسمى أيضا بالمفرج، وهو يمتاز بسعة نوافذه التى تتيح للجالسين التمتع بمباهج الطبيعة. كما يسمى أحيانا بالغرفة الكبيرة لأنها أكبر غرف الدار. ولم يقتصر بناء المفرج على الطبقة العليا من الدار بل بنى مستقلا فى حدائق المنازل يطل على نافورة محاطة بالأزهار والأشجار. ويلعب المفرج دورا هاما فى الحياة الاجتماعية اليمنية فهو غرفة استقبال الضيوف ومجلس إقامة الحفلات. لذا ينصب اهتمام صاحب المنزل عليه فيعنى بتأثيثه وتزيين جدرانه بالمفارش والأطباق والأوانى. ويفتح فى جدران المفرج كوى ونوافذ متعددة تزين جدرانه بزخارف جصية وبصفين من النوافذ العلوية[1]، وفى البيت

(١) غازى رجب، مرجع سابق، ص ١٦٣.

الإماراتى خاصة بيوت التجار وجد عنصر مشابه وهو المجلس وهو عبارة عن مكان مخصص للاستقبال له بابان أحدهما يفتح على الشارع والآخر على داخل المنزل[1].

لقد بنى الإنسان المسلم بيته لسكناه الشخصية ولأسرته فكان البيت يسمح بالزيادات عليه أفقيا أو رأسيا، وذلك حسب زيادة الاحتياجات الناشئة عن زواج أحد الأبناء أو زيادة عدد الأحفاد. وحسب المساحات المتاحة فى البيئات السهلة أو الجبلية. لقد تميزت المنازل الإسلامية بالكفاءة التصميمية العالية للمعمار. وكانت مواد بناء البيت من البيئة، فهو من الطين المحروق فى دلتا الأنهار وعلى شاطئيه وسقفه من سعف النخيل أو من القباب ذات العقود العبقرية البسيطة القوية تحفظ لداخل البيت رطوبته الجوفية وتعكس لخارج البيت حرارة الشمس الساقطة عليه. وعلى شواطئ البحار من صخور المرجان ورواسب الشاطئ السلتية والأسقف من سعف النخيل أو الخشب. وفى البيئات الجبلية كانت البيوت من الأحجار ولضيق المساحة المتاحة كانت متعددة الأدوار بتعدد الاحتياجات الواجب توافرها فى البيت المسلم للضيوف والأبناء ولأداء سائر الشعائر وللراحة والاستجمام فى ضوء القمر وتحت ظل السماء. أما البيئات المتوسطة بين السهل والجبل، فكان البيت متسعا وممتدا أفقيا والحوائط من الأحجار ومادة البناء من الطين والأسقف من جذوع النخل. وواجهات المنازل الإسلامية أغلبها بديع المنظر إلا أننا سنتوقف كثيرا أمام منازل صنعاء ذات الواجهات البديعة التى يظن المرء أنها من إنتاج فنان محترف ومبدع. وواجهات منازل صنعاء متشابهة على عكس واجهات المنازل فى باقى مدن العالم الإسلامى، وسبب هذا التشابه أنها واجهات ذات وظيفة معمارية وفنية تعبر عن الاحتياج الفعلى الذى أعدت من أجله فمثلا نوع فتحة الشباك ومسطحها تعبر فى جميع الأحوال عن الاحتياج الحقيقى لها وإن اختلفت الصورة وهى فى النهاية تعطى تشكيلا جماليا رائعا بما تزخر به من زخارف متنوعة. وتنفرد واجهات منازل صنعاء بالنوافذ الوهمية التى تبدو من الخارج على هيئة نوافذ حقيقية وخاصة فى الطوابق المخصصة للنساء، وقد لجأ المعمار إلى عمل هذه النوافذ الوهمية كنوع من التناسب والتماثل البديع بين الواجهات ذات النوافذ وتلك التى لا تفتح فيها نوافذ ولذلك نجد واجهات منازل صنعاء تضم خليطا عجيبا من أشكال النوافذ الصغيرة والكبيرة المستطيلة والدائرية، نفذت بطريقة عفوية وتلقائية محببة أعطت منظرا جميلا يخلو من التكرار الممل والنشاز المخل فى أشكال النوافذ وغالبا

---

(١) ناصر حسين العبودى (دكتور)، دراسات فى آثار وتراث الإمارات، ص ١٨٢. المجمع الثقافى، أبو ظبى ١٩٩٠م.

ما يعلو هذه النوافذ رفارف خشبية تبرز فوق فتحات النوافذ تعرف محليا باسم الكنة تستند على عوارض خشبية مثبتة فى الجدران والغرض من هذه الرفارف هو حماية النوافذ الخشبية المزخرفة من تعرضها لمياه الأمطار حتى لا تفسدها وكذلك إضفاء مزيد الجمال على الواجهات بما تحمله من زخارف هندسية ونباتية وحيوانية[1]. كما انتشرت الزخارف الكتابية فى المنازل الإسلامية، ومن ذلك الكتابات التى كانت تعلو دار اليتيم، فقد ذكر أحد الرواة أنه تمشى فى شوارع مصر أى الفسطاط فرأى دارا مكتوبا على بابها الأبيات التالية:

منزلنا هذا لمن حله ... نحن سواء فيه والطارق

فمن أتانا فيه فليحتكم ... فإنه فى حكمه صادق

يملك منا كل ما يشتهى ... إلا الذى حرمه الخالق

لا نحذر الفاقة من ربنا ... فإنه المانع والرازق[2]

وفى رشيد زينت بعض مداخل المنازل بالكتابات التى قد تشير إلى منشأ المنزل وتاريخ إنشائه كما فى منزل الأمصيلى أو شهادة التوحيد مشكلة بالطوب الآجر الرقيق كما فى منزل مكى. أو قد تحلى القاعات الرئيسية ببردة البوصيرى كما فى منزل مكى برشيد ومنزل الرزاز فى القاهرة.

كان من الأمور التى يحرص على مراعتها فى المنازل الإسلامية حق الجوار، بدا ذلك بوضوح منذ فترة مبكرة ففى الفسطاط ظهر ذلك من خلال حادثة تاريخية، رويت كما يلى (كان خارجة بن حذافة أول من ابتنى غرفة بالفسطاط، فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب عمر إلى عمرو: أن ادخل غرفة خارجة وانصب سريرا أى مقعدا وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فإن أطلع من كواها فاهدمها، ففعل ذلك عمرو بن العاص فلم يبلغ الكوى فأقرها) وتعنى هذه الحادثة أن من بنى غرفة تعلو منزله عليه أن يراعى حرمة جاره فلا يطلع عليه، وهو ما ترتب عليه باب مستقل فى فقه العمارة هو ضرر الكشف[3].

نماذج البيوت الإسلامية عديدة ونراها فى سمرقند ولاهور وصنعاء وقرطبة، وكلها غنية تنبع جميعها من الموروث الحضارى لأمتنا.

---

(١) عبد الله الحداد (دكتور)، صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية، ص ٥٢، ٥٣ سلسلة مدن تراثية، دار الآفاق العربية ١٩٩٩م.

(٢) خالد عزب، الفسطاط، النشأة الازدهار الانحسار، ص ١٦٧، سلسلة مدن تراثية، دار الآفاق العربية ١٩٩٨م.

(٣) خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، ص ٤٨، ٤٩. دار النشر للجامعات، القاهرة ١٩٩٨م.

صورة رقم (٩): فناء منزل إسلامى
شرفة (منظرة) مطلة على الخليج (باسكال كوست)

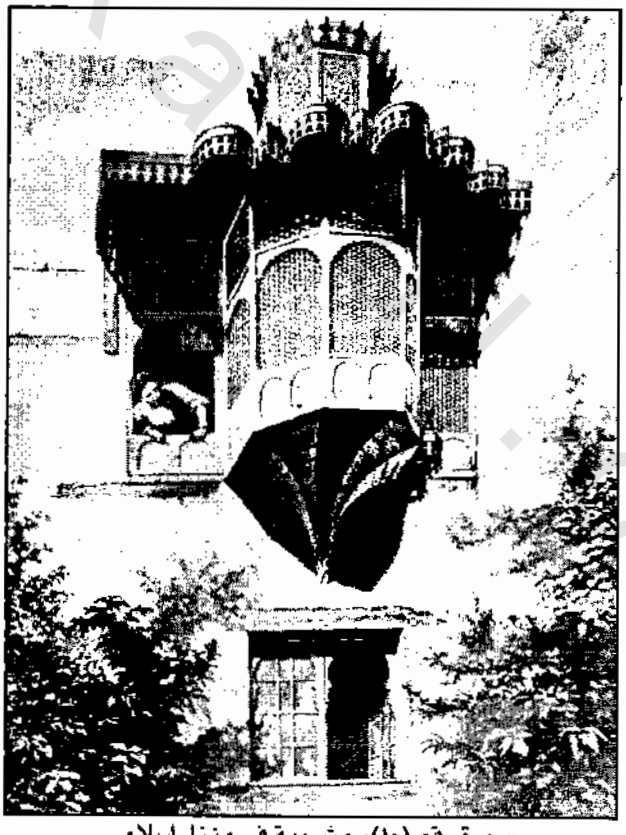

صورة رقم (١٠): مشربية فى منزل إسلامى.

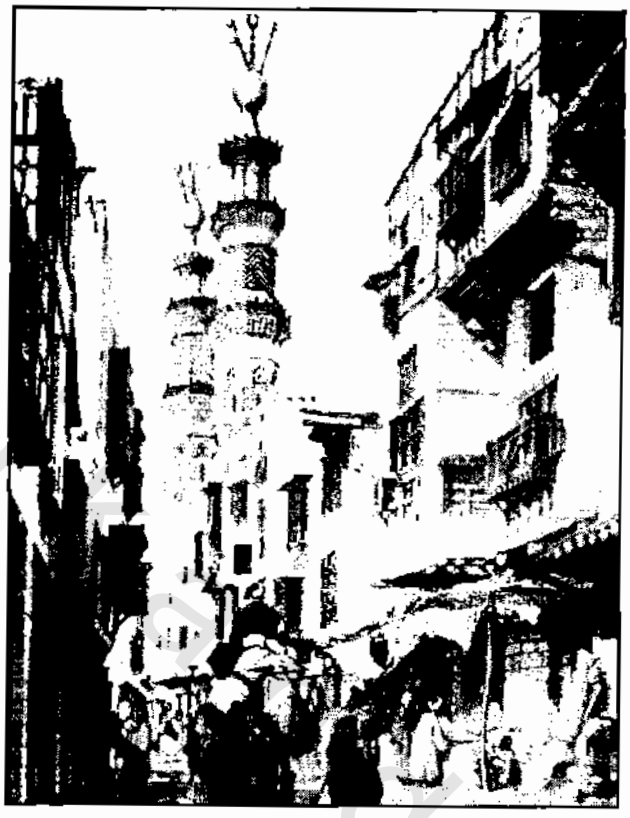

صورة رقم (١١)، المنازل الإسلامية (الدرب الأحمر القاهرة).

صورة رقم (١٢): نماذج من منازل القاهرة.

المؤسسات الخدمية

لا تتكامل وظائف أى مدينة إلا إذا توافرت فيها مجموعة من المؤسسات الخدمية، هذه المؤسسات تشكل عصب المدينة، ولقد حرص المسلمون على إقامتها وتنظيم أداء وظيفتها بسهولة وانتظام. ونتعرض هنا إلى المؤسسات ذات الفاعلية الشديدة فى المدينة الإسلامية، وبصفة خاصة المؤسسات التعليمية والتثقيفية والصحية.

المكاتب: انتشر بناء المكاتب (الكتاتيب) على نطاق واسع فى العالم الإسلامى وعرف لنا منها نوعان هما:

المكاتب الأهلية أو الخاصة: التى كان يقيمها من وجدوا فى أنفسهم القدرة على اتخاذ التعليم حرفة يتقوتون منها، ويتعلم فيها الصبيان بعوض[1] – أجر معلوم – يدفع لأصحابها.

المكاتب العامة، التى كان قيامها مرهونا بأصحاب المناصب والجاه فى الدولة من سلاطين وأمراء ووجهاء وتجار.. ابتغاء (مرضاة الله وثوابه) وكان التعليم فيها مكفولا بدون أجر للأيتام، والمعدمين[2] – الفقراء – وأبناء البطالين من الجند[3] – أحيانا – وقد كفل لهم النظام معاليم عينية ونقدية أو نقدية فقط تصلح لما يحتاجونه أثناء دراستهم فى المكتب، من ألواح ومحابر وأقلام ومداد.. فضلا عن الكساء والفراش، وما يجرى عليهم من الرواتب، أو يبذل لهم فى المواسم والأعياد من الكعك والسكر والحلوى والفاكهة والأضحيات[4]. ولقد روعى فى إنشاء المكاتب عدة أمور تهدف مجتمعة إلى (أن تكون بداية أمر الصبيان على المنهج والطريق الأرشد[5])، ليكونوا فى مستقبلهم رجالا صالحين فى مجتمعهم. وهى أمور أسهمت إسهاما فعالا فى النهضة الفكرية بالمدينة الإسلامية.

---

(١) ابن الحاج (محمد بن محمد العبدى)، المدخل جـ ٢، ص ٣٢١، ٣٢٢، بيروت، دار الكتاب العربى طـ ٢، ١٩٧٢م.

(٢) د. عبد اللطيف إبراهيم، نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – مجلد ٢٨ ص ١٧٢–١٧٣.

– محمد كمال الدين على، المكاتب ودورها فى النهضة الفكرية والاجتماعية فى مصر المملوكية ص ١٠٢ مجلة الدارة السنة ١٦ – العدد الأول ١٤١٠هـ.

(٣) محمد كمال الدين على، المرجع السابق ص ١٠٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٥) ابن الحاج، ص ٣٢٣.

ومن هذه الأمور والضوابط ما تعلق باختيار موضع الكتاب، ومنها ما تعلق بمن يقوم عليه (المؤدب أو الفقيه أو المعلم)، ومن يساعده فى عمله (العريف والسائق)، ومنها ما تعلق بالطلاب أنفسهم وطرق المحافظة عليهم، فضلا عن تنظيم الدراسة وتقنينها، واختيار المناهج لها.

لقد روعى فى القائمين على هذه المكاتب من مؤدبين أو معلمين أو فقهاء - والكل تسميات لمسمى واحد - أن يكونوا مؤهلين لما يقومون به من عمل، تأهيلا خلقيا وعلميا وعمليا، كما يستدل من كلام الفقهاء والكثير من حجج الوقف، ومنه قول ابن الحاج فى مدخله:

«ينبغى أن يكون المعلم من حاملى القرآن الكريم ومن أكثر الناس فى التعليم لشعائره، والمشى على سنن من تقدمه فى تعظيم ذلك وإكرامه[1] و أن يكون على أكمل الحالات، ومن ذلك أن يكون متزوجا لأنه إن كان صالحا فى نفسه فالغالب إسراع سوء الظن فى هذا الزمن بمن كان غير متأهل.. فإذا كان متأهلا انسد باب الكلام والوقيعة فيه»[2].

وقول ابن الاخوة فى معالم القربة فى أحكام الحسبة :

«يشترط فى المعلم أن يكون من أهل الصلاح والعفة والأمانة، حافظا للكتاب العزيز، حسن الخط، ويدرى الحساب، والأولى أن يكون متزوجا، ولا يفسح لعازب أن يفتح مكتبا لتعليم الصبيان، إلا أن يكون شيخا كبيرا وقد اشتهر بالدين والخير، ومع ذلك لا يؤذن له بالتعليم إلا بتزكية مرضية وثبوت أهليته لذلك» إذ «أنه كلما زادت الخصال المحمودة فى المؤدب زاد الصبى به تجملا ورفعة»[3].

هكذا دقق سلفنا الصالح فى شروط المعلم الذى يتولى تربية النشء وهى شروط نفتقدها اليوم، فى كثير من المدن الإسلامية. فالطفل يسلم إما إلى مؤسسات تعليمية على النمط الغربى ويديرها أهل الغرب أحيانا، وإما إلى مؤسسات تربوية مشوهة يفتقد القائمون عليها أبجديات التربية الإسلامية ومن هذا يخرج الطفل مشوها فكريا ومنفصلا حضاريا عن ماضيه وعن دينه.

---

(١) ابن الحاج، جـ ٢، ص ٣١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٩.

(٣) ابن الأخوة (محمد بن أحمد القرشى)، معالم القربة فى أحكام الحسبة، كمبردج، ١٩٣٧، ص ١٣٧.

ومن استقراء ترجمات أعلام العصر المملوكى نجدهم قد التحقوا صبيانا بالمكتب فى سن مبكرة، فقد التحق علم الدين صالح البلقينى[1] والشمس السخاوى بالمكتب فى الرابعة من عمرهما[2]، بينما التحق ابن حجر العسقلانى بالمكتب فى سن الخامسة[3].

كما يلحظ أن ضوابط العمل فى المكتب قد حددت عدد التلاميذ، بحيث لم يكن مسموحا - فى مكاتب الأيتام بحال من الأحوال تجاوز العدد المحدد فى شرط الوقف ما لم يشر صراحة إلى التجاوز عنه. والمدرك من استقراء حجج الوقف أن أقل عدد نص على قبوله فى هذا النوع من المكاتب كان خمسة وأن أقصى عدد كان مائة[4].

وللترويح عن الصبيان وتنشيطهم، فإنه قد سمح لهم بالانصراف إلى بيوتهم فى فترات محددة تتخلل ساعات الدراسة اليومية للاستراحة والغذاء[5] لأنه لم يكن من المسموح به للصبيان إحضار الأموال أو الأطعمة إلى المكتب، مراعاة للولد الفقير الذى يرجع - لا محالة - إلى بيته منكسر الخاطر متشوقا فى نفسه، غير راض بنفقة والديه عليه أو من يتولى أمره، لما يرى من نفقة من له اتساع فى الدنيا[6] وهذا مبدأ اجتماعى مفقود فى عصرنا الحاضر، روعى فيه درء جملة من المفاسد منها إلى جانب هذا مراعاة آداب الشريعة فى التحرز من الأكل على الطريق وفى الأسواق بحضرة من يعرف ومن لا يعرف.

فضلا عن أن الصبى لم يكن ملزما بالحضور إلى المكتب أثناء التقلبات الجوية لما فيها من إضرار العواصف والأتربة والمطر والبرد بصحته أو عندما يمرض. فقد كانت تلك أعذار تتيح للصبيان التغيب عن المكتب مع عدم قطعهم منه أو إسقاط معلومهم فيه غالبا[7].

أما ما يختص بتنظيم العمل فى المكتب، فالملاحظ أن مهمة المعلم لم تكن محدودة بتحفيظ القرآن الكريم ومتون الأحاديث، وعقائد السنن، وأصول الحساب، والخط، والأدب فقط. وإنما اتسعت لتشتمل على الكثير من سلوكيات التقويم والتهذيب، بحيث يعلمهم آداب الدين كما يعلمهم آيات القرآن[8]، ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام

---

(١) ابن حجر العسقلانى، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص ٢٥٦، تحقيق د. حامد عبد المجيد ومحمد المهدى أبى سنة، القاهرة الأميرية ١٩٥٧.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ص ٨ جزء ٢.

(٣) ابن حجر، المرجع السابق، ص ٨٥.

(٤) محمد كمال عز الدين، المرجع السابق ص ١٠٥.

(٥) ابن الحاج، المدخل ص ٣٣٢، جـ ٢.

(٦) المرجع السابق، ص ٣٢٢.

(٧) محمد كمال عز الدين، المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٨) ابن الحاج، المدخل ص ٣٢٥، جـ ٢.

عليهما، وبضربهم على إساءة الأدب والفحش فى الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والنرد وجميع أنواع القمار[1].

مع مراعاة الأخذ بالتدرج والتلطف فى تعليم الأطفال، مراعاة لقدراتهم الخاصة ومدى استعدادهم لما يتقبلونه من العلوم والمعارف، حيث نصت حجج الوقف فى غالبيتها على تعليم الأطفال (ما يحتملون تعلمه) وإقراء الصبيان ما يطيقون قراءته[2].

المدارس: كانت المساجد هى المعاهد الأولى للتعليم عند المسلمين، فيها يتلقون مبادئ الإسلام وأصول الدين الحنيف. وقد حث الإسلام على التعلم وشجع المؤمنين على السعى فى طلب العلم. وكان ذلك مظهرا أوليا لنشأة حركة التعليم. حيث تبع ذلك تدريجيا ظهور حلقات العلم والأدب التى كانت تعقد فى المساجد أو فى بيوت الخلفاء والحكام، وأصبحت المساجد الجامعة الأولى فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة خير أماكن التعليم، وأبرز تلك المساجد هو المسجد النبوى بالمدينة، والمسجد الحرام بمكة، والمسجد الجامع بالبصرة، مسجد الكوفة. مسجد الفسطاط بمصر، المسجد الأقصى بالقدس، الجامع الأموى بدمشق، مسجد القيروان بتونس، مسجد قرطبة فى الأندلس.

وإلى جانب ذلك ظهرت بوادر إحساس بالحاجة إلى أماكن للتعليم غير المساجد وعدم الاكتفاء بها فاتخذت بعض بيوت العلماء لتدريس علوم الدين واللغة[3] ونشأت خزانة الكتب وبيوت الحكمة، ودور العلم لتيسير سبل التعليم ودراسة مختلف العلوم[4].

وجاء القرن الرابع الهجرى حيث شهد تبلور فكرة (المدرسة) بظهور دور مخصصة للتدريس، فيها مساكن للغرباء وأوقفت لها الأوقاف وجعلت فيها خزانات للكتب ودرست فيها علوم مختلفة. وهكذا كانت المدارس مرحلة متقدمة فى سلسلة التطورات التى مرت بها حركة التعليم. وتُضْجًا لفكرة راودت أصحابها ظهرت إلى الوجود بعد توفر الظروف المساعدة لها.

ويعتبر القرن الخامس الهجرى فاتحة عصر جديد بالنسبة لنظام التعليم والمدارس فى الإسلام، عندما أخذت الدولة باحتضان فكرة (المدرسة) واتخاذها مركزا لنشر الفكر الإسلامى بعيدا عن التيارات المعادية والأفكار المضادة، فهيأت الدولة الأبنية لذلك وصرفت الأجور

---

(١) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٣٢٨.

(٢) راجع د. عبد اللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص ٢٨: ١٤٧، محمد كمال عز الدين، المرجع السابق، ص١٠٧..

(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة جـ ١، ص ٣٩، حيدر آباد ١٣٥٥هـ، ابن كثير البداية والنهاية جـ ٨ ص ٣٠١، القاهرة ١٣٥٨هـ.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ١ ص ٤٥٨، جـ ٢ ص ٣٤٢.

للمدرسين والطلاب وجعلت لها الأوقاف الكافية للصرف عليها وضمان دوامها. وهكذا بنيت المدرسة النظامية ببغداد فى سنة ٤٥٩هـ من قبل نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان ووزير ابنه ملكشاه.

أما بالنسبة للنظام التخطيطى والمعمارى للمدرسة فيمكننا القول بأنه مستمد أصلا من نظام المسجد الجامع الذى تطورت عمارته وتخطيطه تطورا منطقيا، بحكم الضرورة وفق متطلبات المدرسة؛ من إقامة بيوت لسكن فريق من الأساتذة والطلاب وتوفير سبل البحث والدراسة والمعيشة[1] لهم، وأبرز الخصائص التى تميزت بها أبنية المدارس فى العصر العباسى هى:

١ - تخطيط المدرسة هو مستطيل أو مربع تتوسطه ساحة مكشوفة (صحن) تحيطها مرافق المدرسة وتحتل الساحة أكبر قدر من المخطط العام للبناية.

٢ - وجود أواوين على الساحة الوسيطة، فبعض المدارس فيها إيوان واحد، وبعضها فيها أيوانان، وهناك مدارس ذات أربعة أواوين.

٣ - إقامة بيت للصلاة فى الجهة القبلية من البناية بحيث يوفر ذلك إمكانية الاستفادة من الساحة فى أداء الصلاة عند عدم كفاية بيت الصلاة ووجود عدد كبير من المصلين.

٤ - وجود حجرات وغرف للسكن مع قاعات كبيرة للتدريس[2].

أقيمت هذه المدارس على مساحات شاسعة من الأراضى، ولكن ظلت العواصم القديمة فى تزايد مستمر وتكدس سكانى، ولهذا فإن مبانى العصر المملوكى فى القاهرة مثلا لم تكن عمائر كما كان الحال فى العواصم الأولى بل كان ولابد من هدم عقار قديم لإقامة المبانى الجديدة عليها.

هذه الظاهرة ملحوظة جدا فى داخل القاهرة فى الأحياء المأهولة بالسكان، أما خارج القاهرة فالأمر مختلف. وكان الازدحام سببا فى تصغير مساحات المبانى المملوكية لاسيما الدينية منها، فبمقارنة مساحة جامع أحمد بن طولون بمساحة الجامع الأزهر، ثم مقارنة ذلك بالمبانى المملوكية نجد فرقا شاسعا فى المساحة.

ولكن رغم صغر مساحات المبانى المملوكية فإن المعمار أظهر فيها براعة فنية وهندسية مذهلة. وأدت هذه المساحات الصغيرة عددا أكبر من الوظائف الموكولة إليها، وأدمجت فيها عناصر معمارية جديدة.

---

(١) د. أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٥٤ - ١٩٢، دار المعارف - مصر ١٩٦٩م.

(٢) خالد خليل حمودى، المدرسة المستنصرية فى بغداد ص ١٠ - المؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد ١٩٨١.

كان على المعمار فى العصر المملوكى أن يتوخى الدقة فى أمرين: **أولهما** أن ينجح فى أن تكون المساحات الداخلية قائمة الزاوية لاسيما فى الأماكن المخصصة للصلاة سواء فى التخطيط الإيوانى أم فى التخطيط ذى الصحن والظلات، وفى نفس الوقت حرص على ألا يهدر من المساحات الأرضية التى يتضمنها البناء وذلك باستخدام التخانات المختلفة فى الجدران لعمل دواليب حائطية أو كتيبات أو خزانات، **والأمر الثانى** الذى إلتزم به المعمار فى العصر المملوكى هو توجيه البناء ناحية الكعبة المشرفة دون أن يعتدى على خط تنظيم الطريق[1]. فما نراه من اختلاف سمك الجدار المطل على الشارع للمنشآت الدينية من طرف عن الطرف الآخر كان نتيجة محاولة المعمار الإسلامى المواءمة بين اتجاه القبلة ومحاذاة الشارع وتشكيل مساحة منتظمة للمنشأة من الداخل. وكان[2] تصميم المدرسة فى العصر المملوكى يمثل فى الغالب أربعة إيوانات متعامدة متقابلة أكبرها إيوان المحراب، وأصغرها الإيوانان الجانبيان، ويتوسطها فى الغالب صحن مكشوف به قبة الفسقية، وألحق بالمدرسة سبيل يعلوه مكتب لتعليم الأيتام عدا مساكن الطلبة والمدرسين. ومن أروع أمثلة هذه المدارس مدرسة السلطان حسن بالقاهرة[3].

وضع لهذه المدارس نظام دقيق، حيث تم تحديد عدد المدرسين والطلاب وقراء القرآن الكريم والحديث النبوى. وعين لكل مدرسة ناظر ومشرف وخازن للكتب ومناول وكاتب إلى جانب المعماريين والفراشين والبوابين والطباخين وغيرهم. كما تم تحديد مرتبات ومخصصات هيئة التدريس والطلاب والعاملين فيها. وقد أوردت المراجع ذلك بالتفصيل، كما بينت أن الالتحاق بهذه المدارس عادة بعد انتهاء الطلاب من دراستهم الابتدائية فى المكتب أو الكتاب ويبقون فيها عدة سنوات. فالدراسة فى المدرسة التنكزية فى القدس كانت أربع سنوات.. وربما كانت هذه هى مدة الدراسة الشائعة[4].

على أنه يمكننا أن ندرس أحد هذه الأنظمة كمثال من أكثر هذه الأنظمة دقة وهو النظام الذى وضعه الخليفة المستنصر بالله لمدرسته ويمكننا تلخيصه فى النقاط الآتية:

١ – يكون عدد الفقهاء (طلاب الفقه) ٢٤٨ متفقها، من كل طائفة (مذهب) منهم ٦٢ فقيها لهم المشاهرة والجراية الدارة واللحم والمطبخ والحلوى والفواكه والفرش والصابون والمسرجة

---

(١) د. حسنى نوصير، عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية ص ٢٥٩، ٢٠٦ مجلة التاريخ والمستقبل كلية الآداب جامعة المنيا المجلد الأول – العدد الأول.

(٢) أبو حامد المقدسى، الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة ص ٤ تحقيق د. آمال العمرى نشر هيئة الآثار المصرية ١٩٩٩.

(٣) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ١٦٨.

(٤) د. كامل جميل العسلى، مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس ص ١٠٠.

وأبريق النحاس مع راتب شهرى قدره ديناران يضاعف فى شهر رمضان. وما سبق نوع من التكافل الاجتماعى الذى قل فى عصرنا الحاضر وهذا التكافل هو الذى أخرج لنا صفوة علماء هذه الأمة فياليتنا نستفيد من الماضى دروسا فى عصرنا الحاضر.

٢ - يعين لكل طائفة (مذهب) مدرس وأربعة معيدين ومرتب ينظم أمور الطلاب ويسهر على راحتهم وطعامهم ويراقبهم ليلا ونهارا. وهذا يفيد فى حرص أهل ذلك العصر على متابعة هؤلاء الطلبة وتربيتهم تربية جيدة من خلال المتابعة المستمرة.

٣ - يكون فى دار القرآن ثلاثون صبيا أيتاما لكل منهم الخبز والطبيخ مع راتب شهرى.

٤ - يعين فى دار القرآن شيخ مقرئ صالح لتلقين القرآن الكريم له فى كل يوم الخبز والطبيخ مع راتب شهرى قدره ثلاثة دنانير.

٥ - يعين مع الشيخ المذكور معيد يحفظ القرآن الكريم للصبيان له الخبز والطبيخ وراتب شهرى.

٦ - يكون فى دار الحديث شيخ عالى الإسناد ويشتغل بعلم الحديث له فى كل يوم الخبز واللحم مع راتب شهرى قدره ثلاثة دنانير.

٧ - يساعد المذكور قارئان للحديث لكل منهما الخبز والطبيخ مع راتب شهرى.

٨ - يكون فى دار الحديث عشرة أشخاص لكل منهم الخبز والطبيخ مع راتب شهرى.

٩ - يعين فى المدرسة طبيب حاذق مسلم له فى كل يوم الخبز واللحم مع راتب شهرى.

١٠ يكون مع الطبيب عشرة أشخاص من المسلمين يشتغلون عليه بعلم الطب لهم الجرايات مثل طلاب الحديث.

١١ - يقوم الطبيب بمعالجة من يعرض له مرض من أرباب المدرسة وأوقافها.

١٢ - يعطى المريض مجانا ما يوصف له من الأدوية والأشربة والأطعمة وغير ذلك.

١٣ - اشترط الخليفة أن يكون فى هذه المدرسة من يشتغل بعلم الفرائض والحساب.

١٤ - جعل الخليفة للمدرسة أوقافا كثيرة كان المسئول عنها يسمى (صدر الوقوف) وقيل عن تلك الأوقاف إنها بلغت ما قيمته ألف ألف دينار، وإن وارداتها فى العام نيف وسبعون ألف مثقال ذهب[1].

---

(١) خالد خليل حمودى، المدرسة المستنصرية ص ١٤، ١٥.

حددت مواعيد الدراسة بهذه المدارس حتى أصبحت تقليدا معمولا به، فكان اليوم الدراسى ممتدا من طلوع الشمس إلى أذان العصر، وكان على المدرس أن يختار الوقت المناسب حسب إمكانيات المكان وحسب ظروفه، خلال اليوم الدراسى، على أن تقتصر فترة الدراسة الفعلية على ما يقرب من ثلاث ساعات.

أما الإجازات السنوية فكانت شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان والعشرين من شوال من كل سنة فإنهم يبطلون حضور الدرس فى هذه المدة ثم يشرعون فى حضور الدرس ويحضرون فى الحادى والعشرين من شوال إلى سلخ ذى القعدة ويبطلون الدرس من مستهل ذى الحجة إلى آخر الخامس عشر منه ثم يحضرون الدرس فى سادس عشر ذى الحجة.

ونلاحظ من هذا أن الإجازات السنوية تتفق والمناسبات الدينية التى تقام فيها شعائر دينية معينة سواء كانت فرضا أم سنة، كما نلاحظ أيضا أن غالبية وثائق الوقف قد نصت على السماح لأرباب الوظائف والطلبة بتأدية فريضة الحج على أن يحصلوا على مرتباتهم إذا كان الحج لتأدية الفريضة، أما إذا كان الحج تطوعا فيلزم الموظف بأن يستنيب عنه، أو يقطع معلومه حتى عودته[1].

وقد اشترطت شروطا فى المدرس، أصبحت على مر السنين تقليدا معمولا به، حتى ولو لم ينص على ذلك. كما يتضح لنا أن المدرس فى ذلك العصر هو أستاذ المادة، وارتبطت مكانة المدرسة بمكانة المدرس القائم بالتدريس فيها. فسمعة المدرس هى التى تضفى على المدرسة السمعة الحسنة، وسمعة المدرس هى التى تجذب إليه الطلبة من مختلف الأنحاء، ولذلك حرص الواقفون على أن يكون المدرس على درجة عالية من الثقافة والتخصص فى مادته.

ولا يمكن أن نغفل شروط الواقفين فى المدرس من أنه يجب أن يكون حسن الهيئة. لما لهيئة المدرس من تأثير كبير على شخصيته فى نظر طلبته، وهو ما تعنى به التنظيمات الحديثة، فتنص على إجراء كشف هيئة للمتقدمين لبعض الوظائف، والتى يجب أن يكون منها وظائف التدريس.

ولما كان وقت المدرس لا يتسع لإعادة شرح بعض الدروس لمن يحتاج إلى ذلك من الطلبة، فقد حرص الواقفون على ترتيب معيد أو أكثر بالمدرسة. ووظيفة المعيد فى العصر المملوكى مثلا تشبه إلى حد كبير وظيفة المعيد فى الكليات الجامعية فى العصر الحديث. فلم يكن المعيد سوى طالب علم متقدم، أو مساعد مدرس، فكان عليه أن يساعد المدرس الذى يتبعه فى المذهب، ويحضر الدروس التى يكلفه بها المدرس ليقرأها أثناء الدرس (فكل معيد يقرأ درسا واحدا من كتاب يعنيه

---

(١) د. محمد محمد أمين، الأوقاف ونظام التعليم فى العصور الوسطى الإسلامية ص ١٦١ ندوة مؤسسة الأوقاف فى العالم العربى والإسلامى.

له المدرس.. والطلبة يسمعون ذلك)[1]، كما كان على المعيد أن يجلس مع الطلبة قبل الدرس أو بعده، لمساعدتهم على استيعاب دروسهم[2].

البيمارستانات :

البيمارستان أو المارستان[3] لفظان أطلقا على المستشفيات بمفهومها العصرى وهى إحدى المؤسسات الخيرية العامة التى شيدها الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم من الموسرين من الرجال والنساء صدقة[4].

كان الحكام الأمويون أول من أنشأ المستشفيات النظامية من العرب وأقدم بيمارستان عرف فى عاصمة الأمويين بدمشق، تنسب عمارته إلى الخليفة معاوية بن أبى سفيان المتوفى سنة ٦٠هـ/٦٨٣م. وكان مكانه تحت المئذنة الغربية فى الجامع الأموى. ومعلوماتنا عن هذا البيمارستان قليلة جدا، ولم يشهد له المؤرخون المتأخرون أثرا[5].

اعتبر معظم الباحثين الوليد بن عبد الملك المتوفى ٩٦هـ / ٧١٥م أول من بنى المستشفيات فى الإسلام، وكان ذلك فى سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م. وحيث إن الوليد قد بنى عمارة هذا المستشفى لغرض الاستشفاء، فلابد أن تكون هندسة عمارته كما يتطلبها نوع العلم وراحة المرضى، وقد بنى الوليد بن عبد الملك هذا المستشفى للمجذومين فى الدرجة الأولى، وأمر بحبسهم فيها لئلا يختلطوا بالناس وينشروا المرض فيما بينهم، وأجرى على العميان الذين فيها الأرزاق[6]، وجعل لكل واحد منهم دليلا، ونفهم من تأسيس هذا البيمارستان تفشى مرض الجذام فى البلاد آنذلك، ومعرفة الأطباء طبيعته المزمنة القتالة التى لا ينفع فيها دواء[7].

انتشرت البيمارستات فى ديار الإسلام. وعرفت فى تونس بالدمنة[8] واشتهرت بعض هذه البيمارستانات كبيمارستان مكناس والبيمارستان النورى بدمشق والبيمارستان القلاوونى

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، نشر ودراسة وثيقة الأمير صرغتمش ٣١١٩٥ أوقاف ص ٢٧.

(٢) د. محمد أمين، المرجع السابق ص ١٥٧.

(٣) بيمارستان أو مارستان لفظ فارسى مركب من بيما أى مريض وستان بمعنى مكان أو محل، أى دار المرضى، وقد عرفت مصر هذه المستشفيات منذ العصر الأموى. د. محمد أمين وليلى إبراهيم المرجع السابق ص ٢٤.

(٤) د. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ص ٣ المطبعة الهاشمية – دمشق ١٣٥٧هـ / ١٩٣٩م.

(٥) المرجع السابق ص ٢٠٥.

(٦) المقريزى، الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ٤٠٥، ٤٣١.

(٧) د. كمال السامرائى، مختصر تاريخ الطب العربى جـ ١ ص ٣١١ دائرة الشئون الثقافية والنشر – بغداد ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) الدمنة أصل الاسم لحارة فى طرف من القيروان، فلما بنى مستشفى فى هذه الحارة سمى هذا المستشفى دمنه وصار هذا الاسم بعد ذلك علما يطلق على كل المستشفيات التى أسست بعدئذ فى تونس. د. كمال السامرائى ص ٦٥٤.

بالقاهرة، وكان سبب إنشاء البيمارستان الأخير هو زيارة السلطان قلاوون وهو أمير لبيمارستان نور الدين بدمشق لما أصابه من مرض، فأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك ليبنين بيمارستانًا، فلما تولى السلطة بنى هذا البيمارستان وقال حين وقفه: وقفت هذا على مثلى ومن دونى وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث. ويشير نص الوقف على أن البيمارستان وقف لخدمة جميع فئات المجتمع وأصبح بعد وقفه مرفقا عاما.

اشتمل البيمارستان على أقسام العلاج المتنوعة فكان فيه قاعة لمرضى الحميات. وأخرى للرمد، وثالثة للجراحة، ورابعة لمن به إسهال، وزود بمطبخ لتجهيز طعام المرضى، وكان فيه موضع للأدوية والأشربة، ومكان لترتيب المعاجين والأكحال وغيرها. وبلغ التكامل ذروته عندما قرر به مكانا لتدريس الطب[1].

يبدو أن وسائل الدولة والموسرين فى الوقاية من الأمراض لم تقتصر على البيمارستانات الثابتة فى تقديم الخدمات الصحية للمجتمع، بل وجدت وسائل أخرى منها البيمارستانات المتنقلة. وهذا النوع من البيمارستانات ينشط فى ظروف تحددها الحاجة، ويرى فريق من المعنيين أن المسلمين لهم الفضل فى ابتكار هذا النوع من البيمارستانات[2]، وقد ازداد الاهتمام بمثل هذا النوع من الرعاية فى أوقات تفشى الأمراض وانتشار الأوبئة، وفى مواسم الحج. ومن أبرز رجال الدولة العباسية الذين اهتموا بهذا النوع من البيمارستانات الوزير على بن عيسى (ت ٣٣٥هـ / ٩٤٧م) فيما أمر به الطبيب سنان بن ثابت[3] (١٦٣، ت ٣٣١هـ / ٩٤٣م) بتقديم الخدمات الصحية للسجناء من جهة وأهل القرى والأرياف البعيدة من جهة ثانية باعتبارهم من المجتمعات المفتقرة إلى الرعاية الاجتماعية والصحية.

ومن ضروب هذه البيمارستانات البيمارستان المنسوب للسلطان محمود بن سبكتكين (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) المحمول على أربعين جملا فى أوقات الحروب، والراجح أن هذا البيمارستان استمر محمولا من بعده حتى عهد الخليفة المقتفى ٥٦٦هـ - ٥٧٥هـ - ١١٧٠م - ١١٩٨م)[4].

الحمامات:

يأمر القرآن الكريم فى أكثر من آية بالنظافة الدائمة عن طريق الوضوء والغسل وحث الرسول ﷺ عليها فى أكثر من حديث، وكان لهذا الحرص على النظافة أن اعتنى المسلمون

---

(١) المقريزى، الخطط ص ٤٠٦ جـ ٢، د. عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية ص ٢٥٠.

(٢) د. أحمد عيسى، المرجع السابق ص ١٠.

(٣) هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة ابن النديم الفهرست ص ٤٣٥ مطبعة الاستقامة - القاهرة.

(٤) د. أحمد عيسى، المرجع السابق ص ١٤.

بالحمامات، سواء كانت الخاصة الموجودة داخل القصور، ومنازل القادرين، أم العامة التى يؤمها الشعب على اختلاف طبقاته. كان لهذه الحمامات العامة شأن فى الحياة الاجتماعية فى العصور الإسلامية المزدهرة، إذ كان يخصص للنساء يوم أو أكثر من أيام الأسبوع يلتقين فيها للاستحمام والترويح، وكانت تبنى حمامات مخصصة لهن لا يدخلها الرجال. وكانت أكثر حمامات البصرة بقرب المساجد[1]. وهى ظاهرة انتشرت فى العالم الإسلامى لارتباط الصلاة بالطهارة والنظافة وبالتالى ارتبطت مواقع الحمامات بمواقع المساجد وترى هذه الظاهرة مثلا فى مدن رشيد وفوة ومطوبس حيث تقع بجوار مساجدها الرئيسية[2]. ويضم كل مجمع سلطانى معمارى فى استانبول واحدا من مثل هذه الحمامات، من ذلك حمام محمود باشا، وقد بنى أصلا ليكون حماما مزدوجا بحيث يجمع خدمات كاملة لراحة الرجال، وخدمات أخرى كاملة ومنفصلة لراحة النساء. ولم يبق من هذه الحمامات الآن سوى القسم الخاص بالرجال. ويتكون هذا القسم من غرفة لتبديل الملابس، عليها قبة كبيرة تحملها مقرنصات، وغرفة ساخنة مثمنة الشكل ومحاطة بعدد من القباب الصغيرة ولكل منها نمط مختلف من الزخرفة. وتعطينا النقوش الكتابية الموجودة، أن تاريخ تأسيسه يرجع لسنة ٨٧١هـ/١٤٦٦م[3].

تشابهت أشكال الحمامات العامة فى العالم الإسلامى، ولم تختلف إلا فى تفاصيل الوحدات المعمارية، إذ كان الحمام يتألف من ممر يؤدى إلى غرفة كبيرة تحوى صفا من الخزانات الخشبية تعلق فيها الثياب، وتسمى هذه الغرفة (المشلح). ومنها ينتقل المستحم إلى غرفة المياه الفاترة فيجلس على مقعد حجرى يتسع لعدة أشخاص، وفيها يقوم خادم بعملية الغسل بالمياه والصابون، وبجانب هذه الغرفة مضجع خشبى مستطيل يقوم فيه مختص بعملية التدليك لمن يشاء. ثم ينتقل المستحم إلى غرفة المياه الساخنة ويصب على جسمه المياه بواسطة أوعية خشبية، وتؤخذ المياه من بركة فى وسط الغرفة، والمياه الساخنة تصل إلى البركة من صهريج خارجى تسخن مياهه بالحطب. وبجوار الغرفة الأخيرة مكان ينتظر فيه المزينون زبائنهم. ثم يعود المستحم إلى حيث وضع ثيابه عن طريق ممر جانبى وبسبب عدم وجود نوافذ فى الحمام، فقد كان الضوء ينفذ إلى الداخل بواسطة كوى زجاجية تثبت فى السقف. ولم تكن الحمامات متوفرة لدى أبناء المدن وحدهم، فالقرويون كان لديهم حماماتهم أيضا، وما تزال إلى اليوم فى جبال البشرات وفى ضواحى غرناطة بالأندلس معالم واضحة عن الحمامات القروية[4].

---

(١) ماسنيون، خطط الكوفة وشرح خريطتها ص ١٨ ترجمة تقى المصبعى صيدا ١٩٣٩.
مصطفى عباس الموسوى العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٢٤٢ دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢.

(٢) خالد محمد عزب، فوة مدينة المساجد ص ٧٥.

(٣) أقطاى أصلان أبا، المرجع السابق ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٤) د. يوسف شكرى فرحات ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ص ١٣١، ١٣٢ د. محمد محمد أمين وليلى إبراهيم- المرجع السابق، ص ٣٧.

* الأسبلة:

كلمة السبيل مشتقة من الفعل سبل بمعنى يسقط أو يلقى أو يغلق عينه أو يدمع. أما كلمة سبيل فهى تعنى ممر أو طريق. أما السبيل بمعناه كمبنى للسقاية فمشتق من المصطلح العربى سبل الماء أى صبه كما يمكن تفهم كلمة السبيل من حيث المبدأ بمعنى أنه عمل فى سبيل الله.

لقد حث الحديث النبوى الشريف على تقديم الماء للإنسان والحيوان على السواء وعلى فعل الصدقات. فقد قيل أن النبى ﷺ لما سئل عن أفضل أعمال الخير أجاب: (سقى الماء لمن يسأل عنه) وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا ينظر الله لهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه عن ابن السبيل..).

ومن هنا يظهر بوضوح أن إقامة مبنى عام بهدف تقديم الماء إلى العطشى من العابرين أو إلى الحيوانات هو فى الأصل تلبية أحد أوامر الله سبحانه وتعالى المتوجبة على الإنسان. عرف المسلمون الأسبلة فى صور مبسطة سواء كانت آنية توضع فى الطرق لسقى عابرى السبيل أو أحواض للمياه يشرب منها المارة. وتطورت عمارة السبيل بمرور الوقت حتى صار بناية لها معالم مميزة. ومهما اختلفت طرز الأسبلة وأشكالها، فإن تكوينه المعمارى كان واحدًا، وهو تكوين يخدم وظيفته، يتكون السبيل من ثلاثة طوابق: الأول فى تخوم الأرض وهو الصهريج

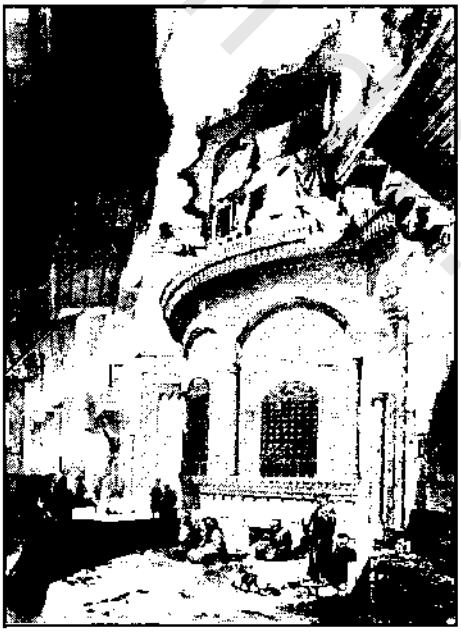

صورة رقم (١٣): سبيل رقية دودو بالقاهرة.

الذى يملأ بالماء والطابق الثانى أرضه أعلى من مستوى الشارع بقليل ويمثل حجرة السبيل أو (حانوت السبيل) ولهذه الحجرة شبابيك للتسبيل وبداخلها أحواض تحت الشبابيك تملأ بالماء العذب من الصهريج، أما الطابق الثالث أى العلوى فهو غالبا قاعة لتعليم الأيتام، أى كتاب، وأحيانا كان يخصص الطابق الثالث للمزملاتى وهو الشخص المسئول عن التسبيل، وتبنى الأسبلة مفردة أو ملحقة بالمساجد والمدارس أو ملحقة بالمنازل كما نرى فى منازل رشيد.

كان السبيل فى أول ظهوره ملحقا بالمسجد أو المدرسة، وقد يشغل ركنا منها كما فى خانقاة الناصر فرج بن برقوق فى القاهرة (٨٠١-٨١٣هـ / ١٣٩٩-١٤١١م) أو قد يكون منفردا كما فى سبيل السلطان قايتباى فى القاهرة بشارع الصليبة الذى يعد أروع الأسبلة فى العالم الإسلامى من حيث عمارته وزخارفه (٨٨٤هـ / ١٤٧٩م). وفى العصر العثمانى استدارت واجهات بعض الأسبلة كسبيل رقية دودو (١١٧٤ / ١٧٦١م) وسبيل أم عباس وعمل فى بعض الأسبلة -- محاريب مثل سبيل عبد الرحمن كتخدا (١١٥٧هـ / ١٧٤٤م) وبعض الأسبلة ألحق بها ميضأة وأقيمت بها الصلوات الخمس حيث عمل أحد العاملين به كإمام، مثل سبيل مصطفى سنان فى القاهرة (١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م).

كانت صهاريج الأسبلة عادة تزود بالماء مرة كل عام، وفى مصر كانت تزود من ماء النيل زمن زيادته، ولابد أن يكون الماء عذبًا حيث نصت معظم وثائق أوقاف الأسبلة التى تنظم العمل بها على ذلك.

إن من أروع ما فى الأسبلة القاهرية هو وحدة تسبيل المياه الباردة، وهو حرص على تقديم هذه الخدمة المجانية للمارة فى أفضل صورة محببة لهم. السلسبيل اسم هذه الوحدة مستمد من الآية القرآنية ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ (سورة الإنسان: آية ١٨). وهو ما يجعل وحدة التسبيل هذه صورة محببة إلى النفوس. يتكون السلسبيل من لوح من الرخام وضع فى قوصرة معقودة بالقرنصات المذهبة الملونة، وزين سطح الرخام بدالات يحيط بها إطار من صور الحيوانات والأسماك، بحيث يؤدى انسياب المياه على اللوح إلى تمازج الصورة وخرير المياه مع أشعة الشمس الساقطة على هذه اللوحات ذات الألوان البديعة. ويؤدى ملامسة المياه المتدفقة للهواء إلى جعلها باردة ومستساغة الشرب. وتتدفق المياه من أشكال برونزية مذهبة لتسبيل المياه على سطح السلسبيل ومنها إلى صحن من فيفساء رخامية ومن ثم إلى أحواض الشرب أمام النوافذ لسقاية أبناء السبيل.

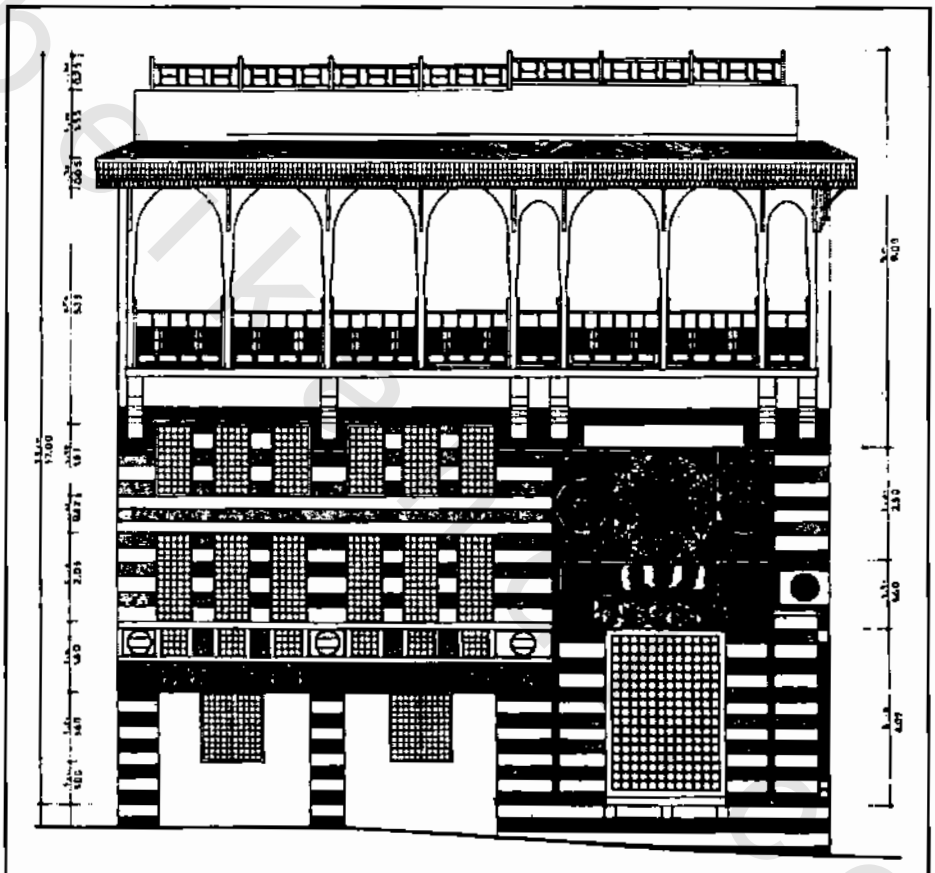

شكل رقم (٧) : سبيل السلطان قايتباى – القاهرة.

منشآت الرفق بالحيوان

وضع الإسلام مبدأ الرفق بالحيوان خلافا لما يظنه البعض من أنه مبدأ أوروبى النشأة حديث الظهور، ومن المعانى العظيمة القيمة التى كشف عنها فى الحضارة الإسلامية هى الوقف على الحيوان، بل تعدى الأمر الحيوان المستأنس إلى الوقف على الحيوانات الضالة، ومثال ذلك ما أوقفه الأمير عبد الرحمن كتخدا، إذ جاء فى كتاب وقفه ما يلى بالنسبة للوقف على القطط (وما يصرف فى ثمن لحم دجير يشترى فى كل يوم ويفرق على القطط بباب مستحفظان فى كل سنة ثلاثة آلاف وستمائة نصف فضة). أما بالنسبة للكلاب الضالة فقد جاء فى كتاب الوقف ما يلى: (وما يصرف فى ثمن خمسة وعشرون رغيفا خبز قرصة تشترى فى كل يوم يفرقها الجابى فى كل يوم تجاه السبيل بخط بين القصرين على الكلاب فى كل سنة ألف نصف وثمانمائة نصف فضة حسابا عن ثمن خبز كل يوم خمسة أنصاف فضة) والأمثلة التى أوردها الباحث من أوقاف الحيوانات الضالة فى ثمن طعامها وشرابها وإيوائها.

بنى المسلمون عمائر لرعاية الحيوان، قد وصلنا على سبيل المثال من العصرين المملوكى والعثمانى نوعان من العمائر تهتم بأمر الحيوان من حيث سقيه وإيوائه وطعامه هما: أحواض سقى الدواب، والإسطبلات.

أولا: أحواض سقى الدواب:

انتشرت أحواض سقى الدواب بالقاهرة ومصر فى العصر المملوكى (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) والعثمانى (٤٢٩-١٢١٣م/١٥١٧-١٧٩٨م) انتشارا كبيرا، إلا أن المصادر التاريخية ذكرت العديد من أحواض سقى الدواب بالقاهرة منذ العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ / ٩٦٩-١١٧١م)[1].

وقد انتشرت الأحواض فى الطرق الرئيسية فى المدينة كقصبة القاهرة وامتدادها ما بين ميدان الحسينية حتى ميدان السيدة نفيسة مرورا ببابى الفتوح وزويلة، وكذلك انتشرت فى الطريق إلى القلعة عن طريق الدرب الأحمر وباب الوزير، وكذلك الأحواض بأسواق القاهرة المزدحمة كسوق السلاح، كما أنشئت فى طرق الحج وطرق القوافل إلى الشام والمغرب إما منفردة أو ملحقة بالخانات.

---

(١) انظر محمد الششتاوى، (منشآت الرفق بالحيوان فى مدينة القاهرة) فى العصرين المملوكى والعثمانى، رسالة دكتوراة - كلية الآثار - جامعة القاهرة.

وفى داخل القاهرة وجدت الأحواض إما منفردة أو ملحقة بالعمائر الدينية والمدنية و لتجارية والحربية، وقد اتخذت الأحواض موضعا متميزا فى العمائر بالواجهات الرئيسية لهـ ليسهل شرب الدواب منها.

مادة بناء الأحواض:

تكاد تكون أحواض سقى الدواب المملوكية والعثمانية مبنية كلها بالحجر الفص النحيث الأبيض والأصفر والأحمر، والحجر الفص النحيت هذا يبلغ متوسط حجمه من ٣٠ إلى ٣٣سم فى الارتفاع، ومن ١٥ إلى ٢٥سم فى العرض، ومن ٥٥ إلى ٨٠سم فى الطول، وهو منحوت نحتا منظما أملسَ مصقولاً، وهو حجر جيرى مستخرج من محاجر القاهرة فى المقطم والبساتين وطرة والقرافة.

كان متوسط عرض الجدران حوالى المتر بحيث تبنى الأحجار منتظمة الأبعاد من الجانبين مع حشوة داخلية من الديش والأحجار الصغيرة، وقد اتبع المعمار فى بناء كثير من الأحواض النظام المشهر أى يبنى صفًا من المداميك بالحجر الأبيض والصف الذى يعلوه بالحجر الأصفر أو الأحمر وهكذا يتوالى الجدار، ومثال للنظام المشهر هذا الذى اتبع فى حوض قمجاش الإسحاقى الملحق بمجموعته بشارع الدرب الأحمر (٨٨٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٨٠-١٤٨١م)، وحوض السلطان قايتباى بقرافة صحراء المماليك (٨٧٩هـ / ١٤٧٤م)، وأحيانًا تغطى الجدران من الداخل بطبقة من الملاط من الجير وجبس وحرة ورمل.

ويوجد حوضان من العصر العثمانى بنيا بالأحجار الرملية هما حوض إبراهيم أغا مستحفظان بباب الوزير (١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م)، وحوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة (قبل ١١٧٤هـ/١٧٦١م). وكانت مادة لحام الأحجار (المونة) تتكون من مزيج الجير والحمرة والجبس والرمل، وأحيانًا يضاف إليها الطين والقصدمل (وهو مادة تعمل عمل الأسمنت مع مونة البناء).

تخطيط الأحواض ومكوناتها:

يتضح لنا من الأحواض القائمة للآن بالقاهرة من الوصف الوثائقى للأحواض المندرسة أن التكوين المعمارى للأحواض لا يخرج عن مساحة مستطيلة أو مربعة الشكل عبارة عن حجرة إيوان أو دخلة ذات ثلاثة جُدُر (صدر وجانبان) والجانب الرابع مفتوح على الطريق بأشكال وطرز مختلفة لتسهيل دخول الدواب للشرب من داخل الأحواض وعدد هذه الطرز عشرة أشكال.

وكان صدر الحوض والضلعان الجانبيان يحتويان أحيانًا كثيرة على عدد من الدخلات، ويختلف عدد هذه الدخلات من حوض لآخر حسب مساحته، فهى على سبيل المثال خمس دخلات بصدد حوض قايتباى بالأزهر (٨٨٢هـ / ١٣٧٧م)، وهى أربع دخلات بحوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة (قبل ١١٧٤هـ / ١٧٦١م)، وهى ثلاثة فى حوض قجماس (٨٨٥هـ/١٤٨٠م). وفى الغالب كانت الأحواض تحتوى على دخلة واحدة فى الضلعين الجانبيين وكانت الدخلات تتوج من أعلاها إما بعقود منكسرة ذات زخارف مشعة تنتهى بصف من العقود المنكسرة الصغيرة تشكل فى النهاية الهيئة الكلية للعقد المنكسر الكبير فى حوض قجماس وأزبك اليوسفى (٩٠٠هـ / ١٤٩٥م)، أو يتوج الدخلة شكل ورقة نباتية خماسية الفصوص مثل الدخلة الجانبية لحوض قجماس، أو يتوج الدخلة عقد محارى كما فى حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة، وأحيانا يتوج الدخلة الوسطى بصدر حوض قجماس، أو المقرنصات ذات الدلايات كما فى حوض قايتباى فى الصحراء (٧٨٩هـ / ١٤٧٤م)، وأحيانا تنتهى الدخلة بهيئة مسطحة أو بحافة مائلة كما فى حوض قايتباى فى الأزهر (٨٨٢هـ/١٤٧٧م). وكان يوجد على جانبى هذه الدخلات أعمدة مخلقة فى البناء من نفس نوع أحجار بناء الدخلات، وكان يوجد فى الجزء الأسفل من هذه الدخلات ميازيب (بروزات) حجرية كانت تسمى فى الوثائق (مجارى حجرا) كانت تتصل بأقصاب (أنابيب) الرصاص أو الفخار التى تنقل الماء لقصبة فى الأحواض الحجرية أو الرخامية التى تقع تحتها ومنها أمثلة باقية فى حوض قايتباى فى الأزهر.

وأحيانا كان يعلو الحوض سواء بالصدر أو الضلعين الجانبيين طراز (شريط) كتابى بالخط الثلث المملوكى يتخلله أحيانا رنوك تحوى نصوصا إنشائية ودعائية مثل حوض أم السلطان شعبان (٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) ونص كتاب وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ المحفوظ فى وزارة الأوقاف المصرية رقم ٩٤٠ على أن حوضه فى الأزبكية كان بصدره أربعة ألواح من الرخام مكتتب بها تاريخ محلى بالذهب.

الأحواض الداخلية المعدة لشرب الماء

أهم ما يحويه الحوض ويؤدى الوظيفة الرئيسية له هى الأحواض الحجرية غالبا والقليل منها رخامية التى تستخدم فى شرب الدواب ومعظمها مستطيل الشكل والقليل بيضاوى أو دائرى وتوضع هذه الأحواض بجانب الجدران وخصوصا الجدار المواجه لمدخل الحوض. ويختلف عدد هذه الأحواض من حوض لآخر. فعلى سبيل المثال يوجد حوض واحد فى حوض شرف الدين يحيى (٨٧٥هـ / ١٤٧٠م)، وحوضان اثنان فى حوض خجا بردى فى ميدان الرميلة (٨٧٧هـ/١٤٧٣م)، وثلاثة فى حوض دولات باى (٨٨١هـ / ١٤٧٦م) وأربعة فى

حوض الوزير مصطفى فى سوق السلاح (٩٦٩هـ / ١٠٦١م) وأخيرا خمسة فى حوض الأمير رجب ببركة الحاج (١٠٧١هـ / ١٦٦٠م).

وكان أحيانا يتقدم الأحواض التى بصدر الحوض حاجز على هيئة سور مثل الحاجز المرمم حديثا فى حوض قايتباى بالأزهر.

سبيل المصاصة (الششمة) بالأحواض:

أحيانا كان يلحق بواجهة الحوض أو بداخله سبيل مصاصة المعروف باسم ششمة، وهو عبارة عن لوح رخامى بصدره حوض ويعلوه صنبور (حنفى) أو أكثر ليملأ الناس منه، وهذا التكوين مماثل لما هو ملحق ببعض الأسبلة العثمانية، ومثال ذلك اللوح الرخامى ذو ثلاثة الصنابير بواجهة حوض عبد الرحمن كتخدا فى الحطابة، وكذلك بواجهة حوض حسن أوده باشى بخط سوية العزى. أما حوض عبد الرحمن كتخدا فى الأزبكية فقد وضع اللوح داخل الحوض، وكذلك وضع لوح رخامى ذو أربعة صنابير فى داخل حوض على كتخدا فى الرميلة.

أرضية الحوض:

وجد الششتاوى بعض أرضية هذه الأحواض ترابية وبعضها مبلطة، وقد نصَّ كثير من وثائق الوقف الخاصة بالأحواض أنه كان يغطى أرضها تبليطة من الحجر الكدان مثل حوض السيفى برقوق بالرميلة (٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) أو تبليطة من الحجر فقط مثل حوض شرف الدين يحيى فى الجودرية (٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) أو تبليطة مفروشة أرضيتها بالحجر الفص النحيت مثل حوض الطحاوى بالإمام الشافعى (١٠٩٩هـ / ١٦٨٨م) أو تبليطة من الحجر الكدان كما فى حوض مصطفى شاهين فى سوق السلاح (٩٦٩هـ / ١٥٦١م). أو يتقدمها زلافة من الحجر، وهذه الزلافة تعنى التبليط ببلاطات ناعمة الملمس مصقولة بها ميل بسيط بحيث ينزلق الماء الزائد من عليها ليصب فى بالوعة مثل حوض جمال الدين الاستادار بخط فم الخور (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م) وأحيانا تكون الزلافة حجرا أحمر كدانا أو عاديا كما فى حوض خجا بردى فى الرميلة (٨٧٧هـ / ١٤٧٣م) وحوض سليمان أغا الكوجكلى (١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م).

سقف الأحواض:

معظم أحواض الدواب كانت مغطاة بأسقف خشبية والقليل بقباب وأقبية، ولم يعثر فى الوثائق إلى ما يشير بوضوح أن بعض الأسقف السماوية بلا سقف بل أحيانا لا يذكر فى الوثيقة نوع التغطية، وكانت تلك الأسقف الخشبية تعتمد على براطيم (عروق) كبيرة من أفلاق النخيل مغشاة بالأخشاب الرقيقة وفوق تلك البراطيم ألواح خشبية مربعة ومستطيلة، وكانت بعض

الأسقف تركز على إزار، وكانت بعض الأسقف منقوشة بالألوان الزيتية المختلفة والتذهيب واللازورد مثلها مثل أسقف الإيوانات فى المدارس وغيرها، وبعضها مغشاة من باطنها بحشوات خشبية مجمعة على هيئة أشكال هندسية ونباتية رائعة التكوين مثل أشكال الأطباق النجمية وأجزائها مثل سقف حوض أم السلطان شعبان (٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) ومثال للأحواض المذهبة والملونة أحواض السلطان قايتباى وأزبك اليوسفى.

وكثير من المصطلحات الوثائقية لأسقف بعض الأحواض هى نفسها مصطلحات أسقف المدارس مثل (مسقف نقيا) نراه فى حوض على كتخدا فى الرميلة (١١٧٨هـ / ١٧٦٤م) وأبو الذهب (١٧٨٨هـ / ١٧٧٤م). ومن الأحواض التى لها رفرف مائل يقى من المطر والشمس مدهونة حوض أزبك من ططخ، وقايتباى بالأزهر وقايتباى بالصحراء.

أما تسقيف الأحواض بالقباب الضحلة فأمثلتها قليلة تتمثل فى حوض السلطان حسن حيث غطى بقبو مدبب، وحوض السلطان الغورى بمصلى المؤمنى بخط الميدان السلطانى غطى بقبو كذلك حيث نصت وثيقة وقفه أنه (مسقف عقدا) هذا لأن المصلى كان مغطى بالقباب كذلك.

ومن العصر العثمانى لا نجد إلا بعض أحواض عبد الرحمن كتخدا هى التى غطيت بأقبية وقباب عرفت فى كتاب وقفه ووثائقه باسم (قبب معقودة) وهى حوضه بالحطابة وحوضه بالقرافة الصغرى، وحوضه بالسيدة نفيسة، وحوضه بعرب آل يسار، وهذه القباب مقامة على مثلثات كروية من الآجر وكذلك القباب بنيت من الآجر.

تزويد الأحواض بالماء:

كل أحواض سقى الدواب كانت تستمد ماءها عن طريق السواقى الموضوعة على الآبار وكانت الساقية ترفع الماء إلى حامل فى مستوى علوى تتفرع منه مجار مائية سواء أكانت حجرا أم أقصابا فخارية أم رصاصا تنقل الماء إلى أحواض سقى الدواب وإلى الميضأة، ومن أمثلتها الباقية ساقية السلطان قايتباى بالصحراء ومجاريها المائية المتفرعة منها، ومنها مجرى يصل إلى الحوض.

الطرز العشرة لأحواض سقى الدواب:

صنفت أشكال أحواض سقى الدواب إلى عشرة أشكال من خلال الأحواض القائمة منها ومن خلال الوصف الوثائقى للمندرس منها، وهذه الطرز هى ما يلى:

* **الطراز الأول** : يتميز بأنه يفتح على الطريق بواجهة مفتوحة كلها، مثال ذلك حوض أم السلطان شعبان، وحوض قجماس الإسحاقى، وحوض أزبك اليوسفى.

* **الطراز الثانى:** يتميز بأنه يفتح على الطرق بواجهة مفتوحة على جانبيها كتفان، مثال ذلك حوض السيفى برقوق، وحوض سليمان باشا.

* **الطراز الثالث:** يتميز بأنه يفتح على الطريق بعقد مدبب مثل حوض جوهر اللالا وحوض شرف الدين يحيى وحوض إبراهيم آغا مستحفظان.

* **الطراز الرابع:** يتميز بأنه يفتح على الطريق بعقدين يرتكزان على عمود أوسط، مثال ذلك حوض أينبك أسفل الربع، وحوض جمال الدين الاستادار بفم الخور وحوض أبو الذهب بالأزهر.

* **الطراز الخامس:** يتميز بأنه يفتح على الطريق بمدخلين بينهما كتف يحمل السقف وأحيانا عمود يحمل السقف بدل الكتف، مثال ذلك حوض قايتباى بالأزهر، وحوض السلطان مصطفى بخط قناطر السباع.

* **الطراز السادس:** يتميز بأنه يفتح على الطريق ببائكة من ثلاثة عقود ترتكز على عمودين، من ذلك حوض دولات باى، وحوض طوغان الدمرداش، وحوض على كتخدا بالرميلة.

* **الطراز السابع:** يتميز بأنه يفتح على الطريق بثلاثة مداخل بينهم كتفان يحملان السقف، مثال ذلك حوص مثطفى باشا شاهين بسوق السلاح.

* **الطراز الثامن:** يتميز بأنه يفتح على الطريق ببائكة من أربعة عقود ترتكز على ثلاثة أعمدة، مثال ذلك حوض مصطفى باشا شاهين بسوق السلاح.

* **الطراز التاسع:** يتميز بأنه يفتح على الطريق بأربعة مداخل ترتكز فى الوسط على ثلاثة دعامات حجرية وعلى الكتفين الجانبين لحمل السقف مباشرة دون عقود، مثال ذلك حوض قايتباى بالصحراء.

* **الطراز العاشر:** يتميز بأنه يفتح على الطريق ببائكة من خمسة عقود، مثال ذلك حوض الأمير رجب ببركة الحاج، وحوض الأمير حسن بيك بقصر العينى.

ثانيا : الإسطبلات

الإسطبلات المملوكية والعثمانية المتبقية والتى ورد وصفها بالوثائق لا تخرج عن مساحة مستطيلة أو مربعة تحتوى على ركاب خاناه وطوالة أو أكثر ومتبن وبئر ماء وحفرة ومرحاض وغالبا ما يسقف الإسطبل كله أو بعضه غشيما (أى سقف غفل من الزخارف والحليات)

بالإضافة إلى وجود حجرة أو حاصل لسكن الكلاف (خادم الإسطبل) أحيانا وأحيانا يلحق بالإسطبل مقعد ومطبخ ومغسل للخيل.

ويعلو الإسطبل أحيانا طابق سكنى من حجرات أو قاعة تتكون من دور قاعة وإيوانين وخزانة نوميه، وأحيانا يعلوه مطبخ أو مخزن أو مقعد.

وقد يشرف الإسطبل على الحوش الواقع به بيائكة من عدة عقود وأحيانا تكون البائكة داخل الإسطبل نفسه، وقد يحوى المكان الواحد أكثر من إسطبل.

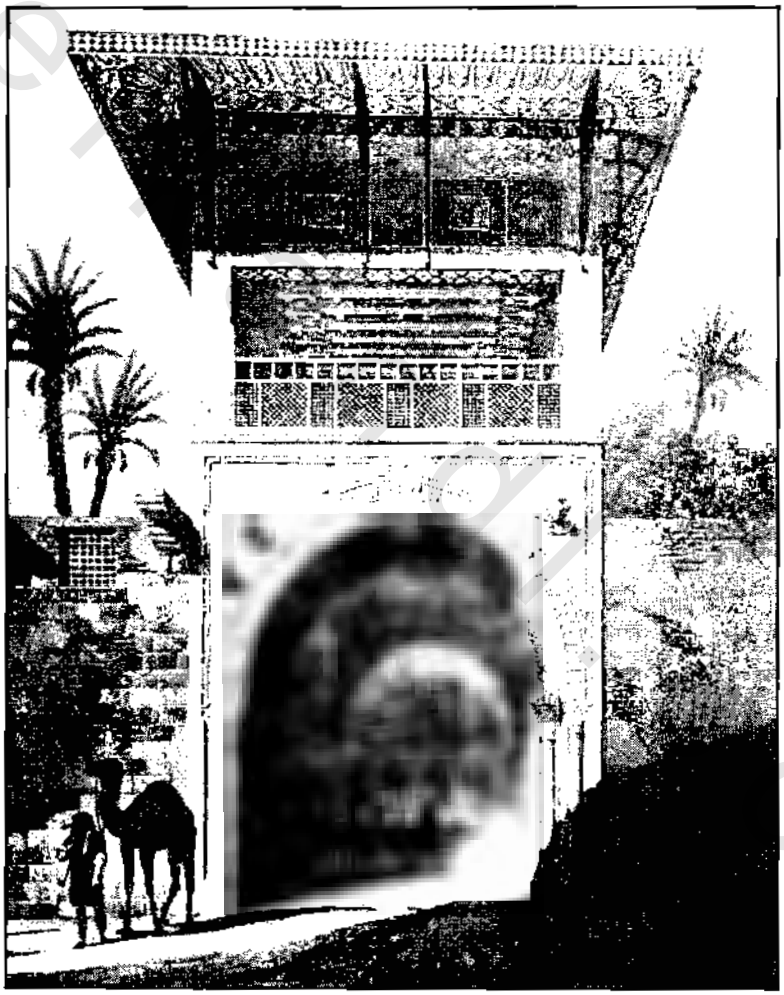

صورة رقم (١٤): حوض عبد الرحمن كتخدا بالأزبكية، (عن باسكال كوست).

obeikandl.com

طواحين الغلال.. تدار بالدواب والماء والهواء

عرفت مصر أنواعًا عديدة من طواحين الغلال، والتى كانت تعد من المنشآت الاقتصادية الهامة والحيوية فى العصور الوسطى، وسنلقى الضوء على هذه الطواحين من خلال المصادر التاريخية متتبعين تطورها حتى ظهور الطواحين التى تدار بالبخار فى مصر الحديثة.

* طواحين تديرها الدواب

وجدت فى مصر الإسلامية طواحين تديرها الدواب.. وهذا النوع يشبه سواقى المياه، ولكن دون بئر أو قواديس. وقوامها ترس كبير يدير عامود المدار الذى يحرك بدوره حجر الطاحون.. وتدير هذا النوع من الطواحين الدواب على اختلاف أنواعها بما فى ذلك الخيل والبغال.

– على أن هذا النوع من الطواحين تطور مع الزمن.. فقد ذكر لنا المقريزى نوعا من الطواحين التى تديرها الدواب، مؤلفة من طابقين، تدير فيها الدواب التروس التى تحرك عامود المدار.. والطابق الثانى وبه حجر الطاحون بحيث لا يختلط الدقيق المطحون بروث الدواب، وهذا ما وصل إليه الإحكام فى تدبير الطاحون التى تطحن الغلال، وأدرك على باشا مبارك برشيد ٥٢ طاحونة تدار بالدواب لم يتبقَّ منها سوى طاحونة واحدة هى طاحونة أبو شاهين.

* طواحين المياه

تمتاز مدينة الفيوم وريفها عن سائر جهات مصر بطريقة رى خاصة حتى ترفع السواقى المياه بنظام الهدارات. وشيد بالفيوم عدد من طواحين المياه التى تستفيد من شدة جريان المياه فى إدارتها، ويذكر لنا ابن إياس أن السلطان قايتباى قد زار ضيعة الأمير فاير بك الأشرفى بالفيوم، وأعجب بما فيها من بساتين وطواحين تدار بالماء. على أن هذا النوع من الطواحين قد انتقل من الفيوم إلى غيرها من الجهات.. فها هو ذا المؤرخ السيوطى يذكر لنا فى سنة ٨٨٤هـ – ١٤٧٩م. أن الأمير جركس الخليلى قد أنشأ على النيل طاحونة تدار بالمياه.

* طواحين تديرها الهواء

يبدو أن طواحين الهواء كانت معروفة فى بلاد الفرس وفى بلاد الروم قبل الإسلام، ويرجح أن مصر قد عرفتها فى العصور الإسلامية المختلفة، غير أنه لم يرد ذكرها فى أى مصدر تاريخى، غير أنه فى عصر محمد على أمر فى ٢٤ جمادى الأول عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م. بإنشاء عدة طواحين هوائية فى مصر لطحن القمح اللازم للأهالى وللجيش.

وهذا النوع من الطواحين عبارة عن بناء مستدير كالأبراج، ومبنى بالطوب، ويبلغ قطر هذا البناء ستة أمتار، وارتفاعها نحو من تسعة أمتار.. وقد تخللت المبانى ميد خشبية الهدف منها تنويع مواد البناء وهو ما يؤدى إلى زيادة تماسكه ومتانته من الناحية الإنشائية، ولأية طاحونة منها بابان ويعلوها شباكان، وتنتهى الطاحونة من أعلى بغطاء مخروطى خشبى له قاعدة خشبية أسطوانية، ولها ثمانية أجنحة خشبية بقيت أضلاعها وفقدت كسوتها التى كانت من القماش. ويتوصل إلى أعلاها باثنين وعشرين درجة من الخشب، وهى من الداخل عبارة عن طابقين فوق بعضهما.. الأول على ارتفاع مترين وأرضيته خشبية ارتكز عليها عامود المدار والأخشاب الحاملة لحجر الطاحونة. والطابق الثانى قاعدته خشبية، وبها مربع من الخشب بداخله حجر الطاحونة يتوسطه عامود المدار بفتحاته، يعلوه عتب يحمل الترس المتصلة أسنانه بعامود الحجر، وعقب الترس متصل بالأجنحة، ويغطى الجميع غطاء مخروطى من الخشب له قاعدة خشبية متحركة كى يسهل توجيهها وأجنحتها إلى مهب الريح، ثم تثبت بخوابير حديدية.

تلك كانت لمحة عن تطور الطواحين فى مصر الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى.. وقبل انتشار طواحين البخار فى مصر.

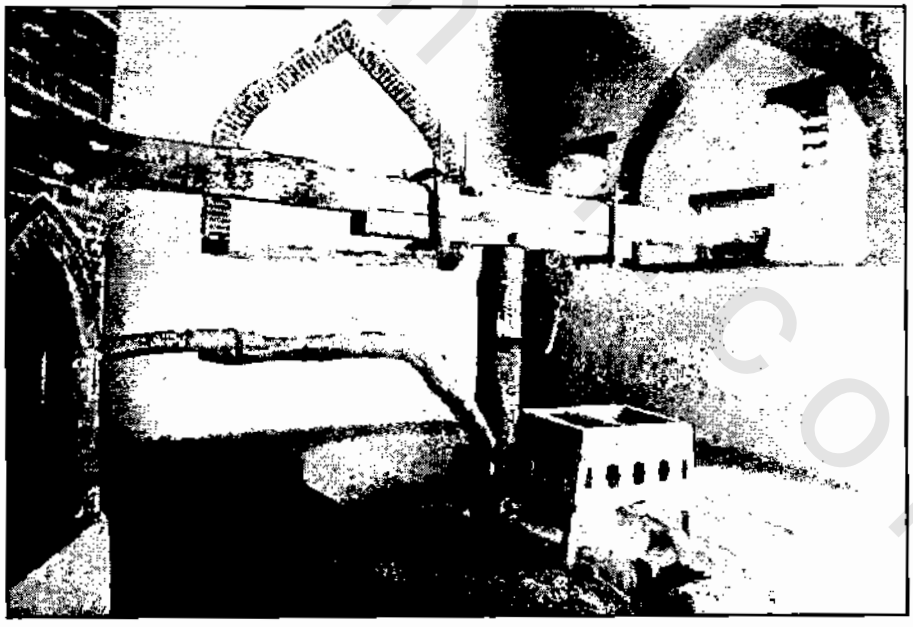

صورة رقم(١٥): طاحونة أبو شاهين فى رشيد.

الاستحكامات الحربية

اشترط علماء السياسة الشرعية عند تأسيس أى مدينة جديدة تحصينها من الأعداء، ولذا وضع حكام المسلمين ضمن أولويات تأسيس أى مدينة تحصينها. ولم يقتصر الأمر على المدن المستحدثة بل يمتد إلى المدن القديمة التى فتحها المسلمون، وتنوعت أنواع الاستحكامات الحربية بالمدن الإسلامية ومنها:

*** الحصن:**

هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أى اعتداء من داخل البلاد أو خارجها، ومن ثم فإن أسوار المدن كانت تعرف فى العصور الوسطى باسم الحصون[1]، مثال ذلك أسوار بغداد والقيروان وفاس والمهدية وقرطبة والمدينة المنورة والقاهرة وصنعاء وزبيد والدرعية وغيرها كثير.

تطور استخدام الحصون فى العصور الوسطى حتى بداية العصر الحديث تبعا لتطور النظم العسكرية والسياسية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، إذ لم يعد الحصن معقلا فحسب بل أضحى المقر الطبيعى لإقامة الأمير أو الملك أو السلطان وأتباعه، كبغداد عند تأسيسها على يد أبى جعفر المنصور والقاهرة عند تأسيسها على يد جوهر الصقلى، وقد يضم الحصن المدينة بكاملها كما نرى فى مدينة خيوة[2] التى تضم حصنين: أحدهما داخلى والآخر خارجى وظلت معظم حصون العصور الوسطى، تستخدم كمقار للأمراء والسلاطين حتى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما حدث فى القاهرة عندما نقل الخديو إسماعيل مقر الحكم من قلعة صلاح الدين إلى قصر عابدين عام ١٨٧٤م. وقد كانت القلعة جزءًا من حصن القاهرة.

*** القلعة:**

القلعة استحكام حربى يبنى فى منطقة استراتيجية كالجبل أو التل أو الروابى الصخرية أو على سواحل البحار، ومهمة هذه المبانى مقصورة على المراقبة والدفاع ضد أى اعتداء خارجى ومن ثم فهى بالضرورة لابد أن تتكون من مجموعة من الأبراج يربط بينها سور وتتوسطها ساحة

---

(١) د. سعاد ماهر محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، جـ ٢، ص ٨١٩.

(٢) أمجد يوهيل بورخازكا، خوارزم عمارة الحضارة المنسية بين مجرى قزوين وآراك، ص ٢٤، ٢٥، ٢٦. إصدار منظمة العواصم والمدن الإسلامية. جدة. ١٩٩١م.

تضم كافة المرافق التى تخدم القلعة، وتمتاز القلعة بأن ساكنيها من الجند فقط، ولا مجال لإقامة المدنيين فيها.

وعلى ذلك يشتمل الحصن على قلعة أو أكثر، ضمن مبانيه، كقلعة دمشق ضمن سور مدينتها، وقلعة الجبل أو صلاح الدين ضمن سور القاهرة الذى شيده صلاح الدين الأيوبى، أما قلعة بخارى فقد شيدت على هضبة مرتفعة داخل المدينة، والغرض من ذلك هو إعطاء ميزة للحاكم تتيح له مراقبة مركز المدينة، وهذه القلعة جددت مرات عديدة آخرها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادين، وخربت مبانيها أثناء حوادث ١٩٢٠م، ولم يبق الآن منها إلا ثلثها تقريبا، وتوجد لها صورة فريدة من القرن الماضى صورها مصور مجهول، وهى محفوظة فى موسكو فى معهد الاستشراق.

*** البرج:**

البرج عبارة عن بناء حربى مستطيل أو مستدير الشكل يبرز عن الجدار أو الأسوار، ويحتوى البرج على مساقط ومراقب ومزاغل لرمى السهام، ولذلك فإنه يتحتم أن تزود أسوار الحصون والقلاع بعدد مناسب من الأبراج ومن ثم فأحجمها عادة يكون صغيرا لتعددها[1] ويعتبر البرج ضمن القلعة أو سور الحصن أحد نقاط الهجوم على المحاصرين أو المهاجمين لكونه ذا مساحة تتيح تخزين سلاح أو ذخيرة وحرية أكبر للجند الذين تحد الأسوار من حركتهم.

وقد يحدث أن تكتفى بعض القرى أو الثغور الصغيرة بإقامة برج للمراقبة والدفاع المبدئى وفى هذه الحالة فإن البرج لابد أن يكون كبيرا حتى يتسع لإقامة حامية كبيرة يمكنها صد هجمات الأعداء، أو على الأقل تعطيل تقدمهم حتى تستعد القلاع والحصون القريبة منه. ولذا كان ابن إياس دقيقا حينما سمى التحصين الذى شيده السلطان قايتباى برشيد بالبرج نظرا لصغر حجمه وإلى وجود قلعة فى تل أبو مندور إلى الجنوب منه تتولى حماية المدينة.

*** الاستحكامات المبكرة:**

لم يحاول أحد من المؤرخين إلى الآن تتبع تاريخ الاستحكامات الحربية فى القرون الأولى للهجرة. لسبب واضح هو أن الأكثرية العظمى لهذه الاستحكامات قد اندثرت، وكانت النتيجة إهمال هذا الجانب الهام فى تاريخ العمارة الإسلامية، وقد ركز معظم الباحثين على المدن التى أسسها المسلمون كمعسكرات لجيوشهم مثل الفسطاط والكوفة والبصرة وغيرها كثير.

---

(١) د. محمد أمين، وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية، ص ٢١، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٠م.

وتركز المصادر التاريخية المبكرة على جهود المسلمين فى تحصين بلاد الشام أمام خطر البيزنطيين فى القرنين الأول والثانى الهجريين، ونستطيع أن نقول أن فن التحصين ازدهر على يد المسلمين، واستطاع الأب بوادبار عن طريق التصوير بالطائرات أن يكشف عن أساسات مطمورة لا يراها الإنسان وهو يمشى فوقها، وكشفت حفائر الرقة عن كثير من المعلومات المهمة فى هذا المجال، ولا يزال البحث عن العمارة الحربية الأولى مهملا إلى الآن، وأجريت فى السنوات الأخيرة بعض الدراسات الجادة أسفرت عن نتائج توضح صورة لا بأس بها لهذه الاستحكامات، فعندما انتصر المسلمون على الروم فى البر انتصارًا ساحقا وحاسما قدروا خطر نزول العدو الرومى إلى السواحل الشامية تقديرا سليما، واتخذوا لذلك إجراءات دفاعية كثيرا، منها بناء المناظر، ومنها تحصين المدن الساحلية إلى جانب الرباطات الدائمة للجند وجمع الساحل كله تحت إدارة عسكرية واحدة.

أقدم الاستحكامات الحربية التى أقامها المسلمون على الساحل الشامى هى المناظر، ولفظ المناظر لفظ اصطلاحى حل محله اصطلاح جديد فى العصر المملوكى ورد فى المصادر المملوكية وهو لفظ المرقب، ويبدو أن أهل الأندلس استعملوا اصطلاحا ثالثا وهو لفظ (الطلائع). أما من حيث الوظيفة، فيدل سياق الروايات التاريخية الواردة خصوصًا عند البلاذرى على أن المناظر الحربية عبارة عن أبراج حراسة مبنية فى الأماكن العالية المشرفة على البحر إبتغاء رؤية المراكب المعتدية، قبل اقترابها من الساحل، والمناظر فى الوقت نفسه وسيلة اتصال عن طريق إيقاد النيران بالمناظر الأخرى لتنبه بقدوم العدو وحلول الخطر، وبسبب هذه الوظيفة نفترض أن النيران كانت توقد فى أعلى الأبراج شأنها شأن المنارات بالنسبة إلى الملاحة البحرية، قديما وحديثا، وبنيت المناظر الإسلامية على طول الساحل الشامى بأمر صادر من الخليفة عمر بن الخطاب، ويحدد البلاذرى عام ١٨هـ تاريخا لبنائها، ومن المرجح أن المسلمين بنوا المناظر أيضا على طول الساحل المصرى لكثرة تعرضه لهجمات البيزنطيين من البحر على نحو ما حدث من هجمات على الإسكندرية ونستراوه.

اهتم المسلمون كذلك بالمدن الساحلية وكان تحصين مدن الساحل ضرورة استراتيجية تقتضيها الظروف السياسية والبشرية واستجاب المسلمون فى هذه الظروف لتلك التحديات الحربية وتصرفوا على ثلاثة أوجه:

- الاحتفاظ بالحصون البيزنطية القائمة والاستفادة بها مثل تحصينات انطاكية واللاذقية وطرابلس.
- إعادة بناء المتهدم من الحصون، وعلى هذا الأساس أعادوا بناء التحصينات فى ثمانى مدن وهى: طرطوس ومرقية وبانياس وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت.

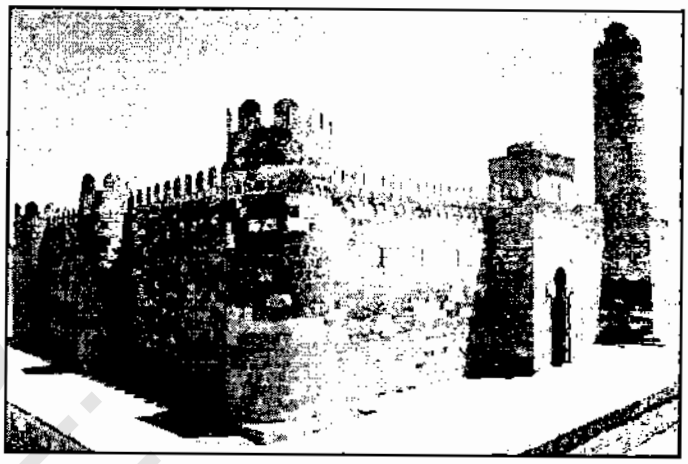

صورة رقم (١٦) : رباط المنستير فى تونس.

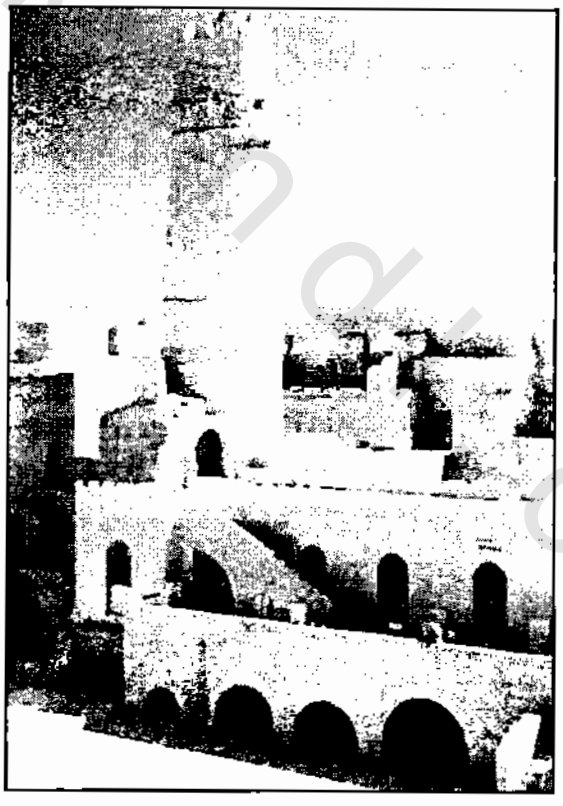

صورة رقم (١٧) : رباط المنستير فى تونس من الداخل.

– بناء حصون جديدة من أبرزها حصن سفيان الذى بنى بين عامى ٢٣ و٢٥هـ واستمر الاهتمام بالاستحكامات فى عصر بنى أمية، خصوصا فى بلاد الشام التى أصبحت قاعدة لحكمهم واستمرت السياسة نفسها فى العصر العباسى، ووصلنا من هذا العصر رباط المنستير وكان بناؤه على يد هرثمة بن أعين. وبقى من هذا العصر أيضا قصر الأخيضر وهو يبعد خمسة وعشرين ميلاً غرب كربلاء، وهو عبارة عن سور مستطيل يحيط بالقصر ويتخلله ثمانية وأربعون برجًا، طول أضلاعه ٥٥٤ قدمًا، وارتفاعه ٦٩ قدما وسمك حائطه تسعة أقدام، وفى كل ركن من أركان الحصن الأربعة برج فيه درج، ويتوسط كل جدار من جدرانه الأربعة باب كبير، ويرجع بناء الأخيضر إلى ما بين عامى٧٢٠ – ٨٠٠م؛ وشيده عيسى بن موسى.

وخلال العصر العبيدى (الفاطمى) شيد العبيديون حصونا عدة أبرزها مدينة المهدية ثم مدينة القاهرة، وجددت أسوار القاهرة على يد بدر الجمالى وبقى من أعمال بدر الجمالى بتلك الأسوار قطاعات كبيرة من السور الذى شيده بالحجر، كما بقيت ثلاثة أبواب لها قيمتها التاريخية والمعمارية وتعد من أجمل الأعمال التى أنجزت فى تاريخ العمارة الحربية الإسلامية، وهى باب الفتوح، وباب النصر، وباب زويلة المعروف عند العامة باسم (بوابة المتولى) وتم بناء تلك الأبواب والأسوار بين عامى ٤٨٠ و ٤٨٥هـ.

وتتميز تلك الأبواب والأسوار بابتكارات معمارية غاية فى الروعة، منها على سبيل المثال ذلك السلم الحلزونى الضخم الذى يوصل بين أرضية الحصن من الداخل وبين سطح الكتلة البنائية التى تضم باب النصر، إذ يلتف ذلك السلم حول عمود ضخم شيد بالحجر المتقن النحت والبناء كما تتجلى روعة حقيقية فى بناء قبو نصف دائرى يعلو قلبات السلم الدائرية، ويصعد مائلا معها، أى أنه يتقوس فى اتجاهين مما يزيد من صعوبة التنفيذ والبناء، ويدل على براعة فائقة ودراية بالهندسة الوصفية. وهناك روائع معمارية أخرى تتمثل فى قبو النفق فى جوف السور فوق زاوية الانكسار عند تقابله مع مئذنة الحاكم، وهناك روائع معمارية أخرى تبرهن بغير ما شك على دراية المسلمين بعلم الهندسة الوصفية الذى يعد من العلوم الصعبة فى أيامنا هذه[1].

* الحروب الصليبية وأثرها:

لابد عند تناول موضوع القلاع والحصون التى تم بناؤها فى العصور الوسطى من البحث فى الأحداث التاريخية التى رافقت هذه المبانى ذات الطابع الحربى، إذ انطلقت أربعة جيوش من القوات الصليبية عام ١٩٠٦م استجابة للنداء الذى أطلقه الباب أوربان فى مجمع كليرمونت،

(١) د. فريد شافعى، العمارة الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها: ص ٧٥، ٧٦.

وتم لهذه الجيوش احتلال عدد من المدن الإسلامية المهمة منها القدس، وبعد استيلائها على مدن الشام الساحلية أصبحت هذه القوات معرضة لخطر الهجمات التى كانت تقوم بها الجيوش الإسلامية لذلك تحتم عليها اتخاذ مواقع دفاعية، وإنشاء حصون ليتمكنوا من الصمود أمام هجمات المسلمين بالإضافة إلى محاولاتهم عرقلة التجارة عبر الطريق البرى بين الشام ومصر، وكذلك عرقلة قوافل الحجاج، وهكذا قام بلدوين الأول خلال الأعوام ما بين ١١١٥ - ١١١٦م، بإنشاء قلاع الشوبك (مونتريال) فى معان، وايله على جزيرة جراى فى خليج العقبة، وقلعتى الوعيرة والحبيس فى وادى موسى، ثم بنيت قلعة الكرك.. عندها كان لابد للمسلمين من القيام بحركة مماثلة للرد على هذه السلسلة من الحصون والقلاع، فقام عز الدين أسامة أحد أمراء صلاح الدين الأيوبى ببناء قلعة الربض (عجلون)، وكان غرض السلطان من تشييد الربض حرمان الأمير أرناط الصليبى من وضع يده على إقليم شرق الأردن الشمالى، وجعله تحت إشراف جند دمشق، وفى الوقت نفسه لاجتناب قلاقل بنى عوف سكان الإقليم ضده وكان عز الدين أسامة سجن مشايخهم فى الربض بعد انتهائه منها وبنيت كذلك قلعة جزيرة فرعون[1].

وكانت هناك أربعة متطلبات أساسية لابد من وجود أحدها أو وجودها مجتمعة فى أى بناء صليبى ذى طبيعة عسكرية وهى:

١ - حصن منيع يسهل الدفاع عنه نظرًا لنقص القوى البشرية.

٢ - أن يمتاز الحصن بموقع يمكن رؤيته عن بقية الحصون لتسهيل عملية ايصال وتبادل الرسائل.

٣ أن يمتاز بجدران مرتفعة وسميكة لتصعد فى وجه أى هجوم مباشر مع العلم بأن إمكانية القيام بإصلاحات دورية دائمة كانت غير واردة لنقص القوة البشرية كما ذكر سابقا.

٤ - توفر مساحة كبيرة نسبيا داخل البناء خلف الأسوار يمكن اللجوء إليها من قبل الصليبيين القريبين من التحصين مع إمكان حمايتها أو الدفاع عنها.

لقد جاء الصليبيين إلى بلاد الشام حاملين معهم مفاهيم خاصة معينة بيزنطية ونورماندية وفرنسية - فيما يتعلق بالعمارة الحربية، ومن ثم خرجوا متأثرين بما فى هذه البلاد من مفاهيم حربية، ولعل أكثر العناصر التى تأثرت بها العمارة الحربية الأوربية، بعد الحروب الصليبية

---

(١) حنان الكردى، القلاع الأثرية فى الأردن، ص ٢، دائرة الآثار العامة بالأردن، ١٩٧٤م.
لانكستر هارون، آثار الأردن، ص ٦٣، ١٢٩، ١٣٧. ترجمة سليمان موسى. وزارة السياحة والآثار الأردنية، ١٩٧٥.

مباشرة، عنصر المدخل المنكسر أو الباشورة الذى رأيناه للمرة الأولى فى تحصينات بغداد، وما زال يوجد له مثل قائم فى أسوار صلاح الدين فى القاهرة سجلته الحملة الفرنسية باسم الباب الجديد وكان يوصل إلى الباب قنطرة متحركة فوق الخندق المحيط بالقاهرة وله نماذج عديدة بالمغرب الإسلامى.

ومن أروع أمثلته الباقية الباشورة التى زودت بها قلعة حلب، وذلك لما تمتاز به من كثرة عدد المنعطفات إذ تبلغ نحو ستة منعطفات وهى كثرة تزيد من مناعة التعويق عن المرور من خلالها بسهولة بما تجعل المهاجمين يتعرضون لضربات قاتلة بالسهام والحراب فى أثناء مرورهم بتلك المنعطفات، فضلا عن المنحدر القاسى الذى يتقدم المدخل والذى تحمله القناطر المشيدة فوق الخندق المحيط بالقلعة[1].

ومن هذه العناصر السقاطات وهى عبارة عن قوائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منه إلى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران كما يمكن أن يصب على رؤوسهم الزيت أو الماء المغلى أو غير ذلك من المواد المؤذية.

وتطورت الاستحكامات الحربية لتتناسب مع تطور الأسلحة المستخدمة بها وبصفة خاصة المدافع ونرى هذا بوضوح فى الاستحكامات الحربية بها وبصفة خاصة المدافع، ونرى هذا بوضوح فى الاستحكامات الحربية العثمانية، وبرشيد العديد من هذه القلاع مثل قلاع العبد والنتى والجزاير والشيخ.

والذى يهمنا هنا هو توظيف التراث الحربى الإسلامى المعمارى فى تربية النشء فزيارة الأطفال ومعلمهم لقلاع حلب أو القاهرة أو مسقط أو أسوار فاس أو مراكش، ليشرح لهم المعلم فصولا من تاريخ هذه الاستحكامات وجهاد الأجداد من خلالها، ليربط لهم المكان الذى مرت به الأحداث بالأحداث التى مرت عليها قرون ويثبت لديهم التاريخ الإسلامى والدروس المستفادة منه، ويخلق لديهم رغبة فى استعادة أمجاد الأجداد، إن هذا النوع من التربية الذى يعرف فى الغرب والتربية المتحفية أمر نفتقده كثيرا عند توظيفنا لتراثنا المعمارى فى الحاضر لنبنى من خلاله أجيال المستقبل.

---

(١) صبحى صواف، قلعة حلب، مديرية الآثار والمتاحف السورية، ١٩٦٧م.

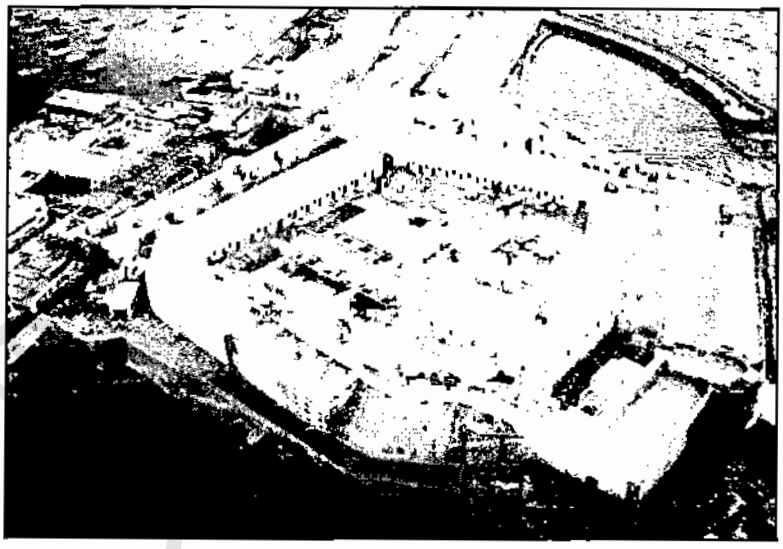

صورة رقم (١٨) : قلعة قايتباى بالإسكندرية (منظر من الجو).

صورة رقم (١٩) : برج الغازى مصطفى فى تونس يعود للعصر العثمانى.